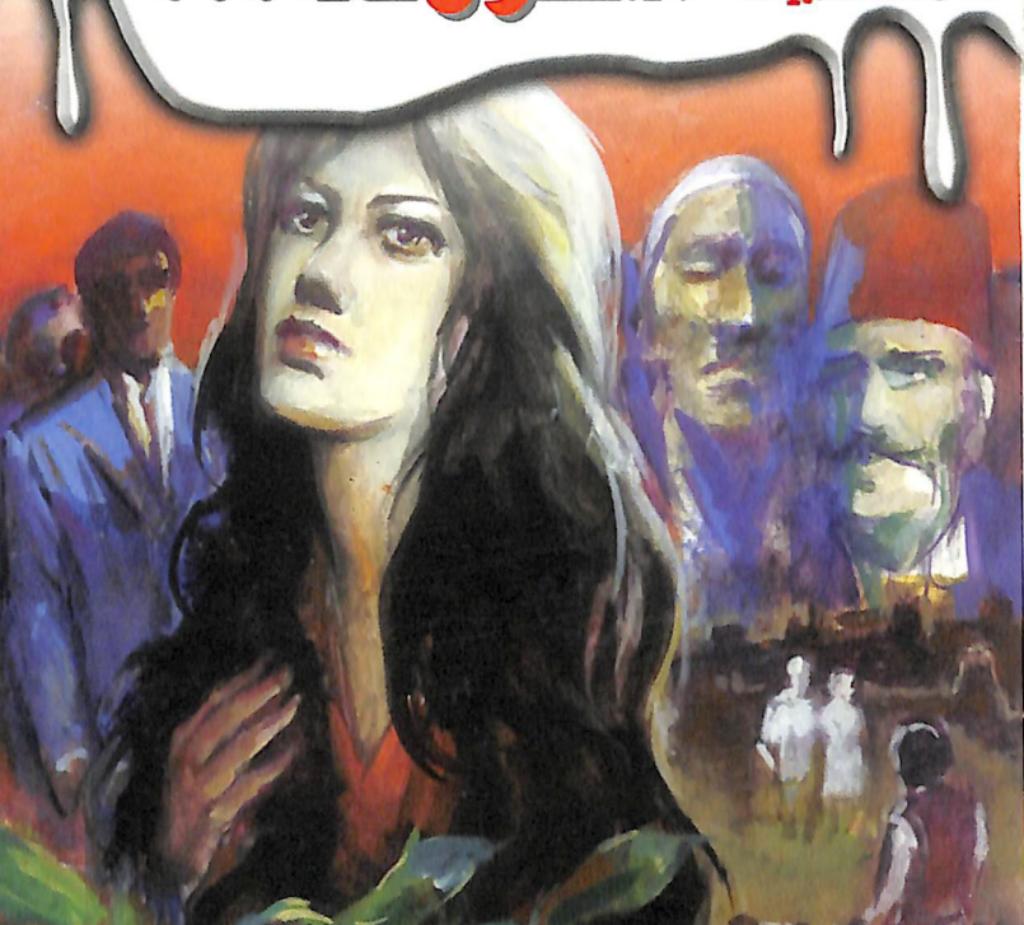


روايات مصرية للجib

أسطورتنا ...!

27

هاوناء الطبيعة



ماوراء الطبيعة

روايات تختبئ في الأنفاس
من فرط الفحص والرعب والإغارة

روايات مصرية الجيب

٣٧٩



د. أحمد خالد توفيق

أسطورتنا .. !

الناس يتهمون .. يقولون
إن بيتنا يختلف عن كل البيوت ..
عاداتنا تختلف عن كل العادات ..
ضيوفنا يختلفون عن كل الضيوف ..
الناس يتهمون ويرتجفون ! يعلمون أن
لدينا سرًا صغيرًا .. وهذا السر يجعلنا
لا كالآخرين .. ولدينا أسطورة تختلف
عن كل الأساطير .. إنها
أسطورتنا .. !

العدد القادم :
أسطورة آخر الليل

الناشر
المؤسسة العربية الحديثة

للطبع والنشر والتوزيع
١٠ شارع كامل صدقى بالفجالة - القاهرة - ت ٥٩٨٤٥٥

الثمن في مصر
وما يعادله بالدولار الأمريكي
فيسائر الدول العربية والعالم

27

**روايات مصرية للحبيب
ماوراء الطبيعة**

أسطورتنا .. !

روايات مصرية للجيب

ما وراء الطبيعة

روايات تخبيس الأنفاس
من فرط الفموض والرعب والإثارة

مصنف مصرى مائة في المائة
لا تشبه شبهة الترجمة أو الاقباس
أو النقل عن أية قصص أوربية .

إشراف

الأستاذ/ حمدى مصطفى

جميع الحقوق محفوظة للناشر
وكل اقباس أو تقليد أو تزيف
أو إعادة طبع بالتزوير يعرض
المترتكب للمساءلة القانونية .

طباعة ونشر المؤسسة العربية الحديثة للطبع والنشر والتوزيع - المطابع، ١٠، شارع ٧٤ المنطقة الصناعية
بالعباسية - منافق البيع، ١٦، شارع كامل صدقى الفجالة - ٤ شارع الإسحاقى بمنشية البكري روكتس مصر
الجديدة - القاهرة ت: ٢٨٢٣٧٩٢ - ٩٠٨٤٥٥ - ٢٥٨٦١٩٧ فاكس - 2596650 - 202 ج.م.ع.

27

ما ورا، الطبيعة

روايات تحبس الأنفاس
من فرط الفموض والرعب والإثارة

أسطورتنا .. !

بكلم :

د. أحمد خالد توفيق

الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع
٩٠٨٤٥٥ مسلمة بالبلدة، القاهرة - ٦.

مقدمة

انتهيت من قراءة بعض الأوراق العلمية ، وشعرت
بـ (كاللو) العينين .. ذلك المرض لم يصفه أطباء
العيون فقط ، لكنى واثق من وجوده ..
عيناي شبيهتان بقدمين مشتا أمياً فى حذاء
ضيق .. وحين نزعت الحذاء - عويناتى - وجدتهما
ملتهبتين منتفختين تنبضان الماء وإرهاقاً .. وقد تكون
(كاللو) قبيح فوق كل منها ..
يسألنى البعض : ألسنت متقدعاً ؟ لماذا ترهق نفسك
بالدراسة إذن ؟
أقول لهم - فى كبريات - : إننى تقاعدت لكننى لم
أمت .. وأنا سأظل تلميذاً منبهراً بالعلم حتى يحملوننى
إلى القبر ..

إن الإنسان الميت هو الذى كف عن التعلم
واكتساب الخبرات .. ولهذا ترون أننا محاطون
بالموتى الأحياء طيلة الوقت ، لكننا لا ندرك ذلك ..
وأشنع المسوخ طرداً هو الميت الذى لا ييدو كذلك !
مازلت طفلاً مفتوناً بكل هذا التقدم العلمى فى

الأعوام الأخيرة .. وكل هذه الطلاسم عن (الهندسة
الوراثية) و (سلسلة البوليمرizer) و (العلاج
بالجينات) و (كاميرا جاما) .. كل هذه الأسرار
المقدسة التي لو سمع عنها (ماكس ليeman) أو
(لستر) لتحولا إلى قرويين ساذجين ..
الآن دعوني أحك لكم قصة رهيبة جديدة ..
إن السرد الكلامي يتعب اللسان ، لكنه يرحم
العينين ..

اسمحوا لي بأن أطفئ الأضواء جميعا ، وأسترخى
في مقعدي الأنثير الوثير .. سأغلق عيني لأريحهما ..
سأحك لكم اليوم قصة أخرى لا دور لها فيها
سوى السرد .. إنها لا تتحدث عن أسطورة مصاص
دماء .. ولا أسطورة مذعوب .. ولا أسطورة نبات
قليل التهذيب .. ولا أسطورة وحش عائد من زمن
سحيق ليجعل الحياة لا تطاق .. ولا
إن هذه الأسطورة تختلف
إنها أسطورتنا

★ ★ ★

١ - أسرتنا ..

حين انتهيت من صياغة قصة (إيجور تاركوفسكي)
و Jenner النازى ، شعرت براحة كبيرة ..
لقد كان الخطاب طويلاً حقاً كتب في مائة وعشرين
ورقة كبيرة ، وبخط صغير جداً .. وأعتقد أن طوله
عند الطباعة سيقترب من الأربعين صفحة .. وأنا
أحسد هذا إلـ (إيجور) على صبره وحماسه ..
وأحسد نفسي أنا على مثابرتي في تهذيب الأسلوب
بعد ترجمته طبعاً ..

وهكذا استطعت أن أكون الخطاب في (دوسيه)
خاص لأغراض بهذه ، ودفنته في درج مكتبي الأيسر
السفلي الذي أفتحه كلما مررت أربع وثلاثون سنة ..
وببدأت التفتيش عن خطاب آخر مناسب ..
تجاهلت - بالطبع - كل الخطابات عن (العفاريت
في دورة المياه) و (التليفزيون المسكون) و (القط
الذى يطير) ..

تجاهلت كذلك كل الخطابات المتعلقة بالجان والمس ..
أنا أؤمن بالجان ، لأن القرآن الكريم ذكرهم بوضوح ..

لكن الموضوع معقد وملئ بالأقاويل ، ولا أريد
التدخل فيه بالنفي أو التأييد حتى لا يساء فهمى ..
ويكفينى أن خبراتى مع الجان محدودة جداً ، فلست
خير من يتحدث عنهم بالتأكيد ..
آه ه ! أخيراً هذا الخطاب يصلح ..

★ ★ ★

هذا الخطاب من مصر ..
الخط على المظروف ردئ نوعاً ، وأنا أحب
الخطوط الرديئة لأنها ت Shi بصدق وجداً ..
وانفعالية لم تذهب بعد ..

إن الخط الجميل يكشف عن إنسان يرشح أفكاره
بدقة قبل أن تلامس الورق ، ولربما أعجبت بسلوك
وتهذيب لورد إنجليزى .. لكنى - بالتأكيد - أفضل قضاء
أمسىتي مع شاب مصرى عادى جداً يتكلم حين يريد
الكلام .. ويضحك حين يررق له الضحك ..

المحافظة هي (.....) ..

اسم المرسل هو : (هـ) ..

(لست في حل من ذكر الأسماء كاملة مادمت أكتب
لقارئ العربية) ..

وعلى كل حال .. الخطاب طويل .. طويل جداً ..

أقرب إلى كراس متوسط الحجم ..
 وبسهولة عرفت أن مرسلته أنشى .. أنشى متوسطة
 التعليم تخطى فى قواعد اللغة العربية كما يخطى فيها
 الخواجة (جونسون) نفسه .. كما أنها تعانى مشكلة
 لا حل لها بالنسبة لحرفى (الذال) و (الزاي) .. فتكتب
 (زنب) و (زالك) .. وتكتب (رزين) و (ذاهي) ..
 أردت - فقط - أن أضعك فى الصورة ..
 والآن .. تعال نطائع الخطاب معا ..

★ ★ ★

(عذىدى) د. (رفعت) :
 تحية طيبة و (بعض) ..
 (ملحوظة : سأبدأ التصحيح اللغوى الآن حتى
 لا أضائق القارئ) .

طالعت بعض مغامراتك الشائقة فى عالم الأشباح
 والأرواح ، كما استمعت إلى حلقات من برنامجك
 الإذاعى [بعد منتصف الليل] (★) . وقد أحببت صوتك
 الوقور الرزين ، ورأيتك الهدنة فى كل ما تسمعه
 عبر سلوك الهاتف ..

الآن قررت أن آخذ رأيك فى المشكلة التى أواجهها ..
 مشكلة لا حل لها للأسف لأنها حياتى ذاتها ..

(★) تعرفون المزيد عن هذا البرنامج فى الكتب العشرين ..

فلو كنت تملك حلاً ؛ أرجو أن ترسله لى على العنوان المرفق .. أو كنت لا تملك فلا بأس .. كل ما أطلبه منك هو الثقة بهذه السطور ، والسرية التامة .. فهذه الحقائق ليست للنشر فى أية صورة مفرونة بأسماء أبطالها الحقيقيين ..

لا بد أنك عرفت محفظتي من العنوان ، وعرفت كذلك أتنى أقيم فى قرية صغيرة قريبة من المركز .. هي (.....)

اسمها مضحك .. أليس كذلك ؟ يقول البعض إنه مستوحى من اسم فرعونى قديم .. ويقول آخرون إنه تحويل لتسمية أطلقها الجنرال (مينو) بالفرنسية على موقع هذه القرية ..

لا يهم .. المهم أنها موجودة .. وأننا نعيش فيها .. وأجرؤ على القول: إننى أحبها ..

★ ★ ★

والآن دعنى أعرّفك أفراد أسرتى الصغيرة ..
أولاً : أنا (هـ) .. فى السابعة والعشرين من عمرى .. أنسنة .. حاصلة على دبلوم متوسط لكنى لا أعمل ..

من المعടاد هنا أن تقول كاتبة الخطاب : يقولون :

إتنى حسناء » .. لكنك فى سن تسمح لك بالغفران
للغرور البشري .. لا داعى للتواضع الزائف إذن ..
أنا حسناء .. بل أنا أجمل شئ رأيته فى حياتى ..
لماذا لا تتزوج فتاة حسناء حتى السابعة والعشرين
من عمرها ، فى قرية تسمى الفتاة عانسًا إذا لم
تزوج حتى سن العشرين ؟!

هذا ما سترى سببه بعد صفحات عدة ..
ثانية : أمى .. فلاحة عادية جداً وبائسة ..
لا يميزها شيء .. ويقال إنها ابنة خفير العزبة التى
يملكها أبي ، لكن أسئلة كهذه لا تطرح .. ولم يجر
أحدنا على سؤالها ..

ثالثاً : أبي .. الشرى الريفى الذى سئم حياة المدينة
وعاد إلى الجذور .. يملك عزبة متراصة فى القرية ،
وعلى وجهه الذى زانته السنون بتجاعيد الخبرة ..
ترى ملامح عز قديم لا شك فيها .. وترى وسامه
وملاحة لم تغمرها الأعوام بعد .. لقد اتساب النهر
القديم ليروى الفروع .. والوسامة القديمة وجدت
فروعها فى بناته ..

يقال أيضًا : إن أبي كان متزوجاً من إحدى
وصيفات الأميرة (فوزية) .. وهو وضع اجتماعى

كان يشير الحسد في مصر قبل الثورة .. ثم إن المرأة المتعالية شامخة الأنف فقدت صوابها مرة .. قالت لأبى إنها أخطأت يوم تزوجت فلاحاً ابن فلاح .. صارحها أبى بأنه فخور بجذوره ، وأنه يفضل أن يكون فلاحاً على أن يكون من سلالة لص هرب من (الاستانة) وجاء إلى مصر متظاهراً بالأristقراطية .. ثارت المرأة وأمسكت بكوب الماء - وكانت على مائدة الغداء - وقدفته في وجهه .. وكانت هذه آخر غلطة تقارفها في حقه ..

يقال : إنه أوسعها ركلاً وصفعاً .. ثم طلقها .. بعد هذا راح يفتش عن فلاحة طيبة تعرف حق زوجها وبيتها .. أو - على حد قوله - أراد زوجة (من وراء الجاموسة) .. وكانت أمى هي الزوجة المناسبة .. ولم يكن مخطنا تماماً ..

رابعاً : شقيقتي (س) .. طالبة في كلية الآداب بالقاهرة .. في العادة تقيم في المدينة الجامعية أكثر أشهر الدراسة .. لكنها الآن معنا في عطلة الصيف .. رأيي الخاص أن (س) أقل جمالاً مني بمراحل .. وهذا كاف لجعلها فاتنة !

خامساً : شقيقتي (ن) .. طالبة في المدرسة الإعدادية .. مراهقة جداً .. لها كل مزايا وعيوب واهتمامات كل المراهقات الآخريات ..

سادساً : شقيقى (ئ) .. طفل في الثامنة من عمره .. شديد الذكاء والحيوية .. لكنه - كما هو واضح - (آخر العنقود) كما يقولون .. وبالتالي هو المدلل في الأسرة باعتباره ذكراً .. وأصغرنا ، وأنا أرجح أن تربيته خاطئة ، وأنه سيشب سفاحاً أو مدمراً مخدراً .. فكلهم يبدعون بذات الكيفية .. لكن من في بيتنا يجرؤ على انتقاد أسلوب تربية (ئ) ؟!

أسرة تراها في كل مكان ..

فما هو الغريب هنا ؟

ما الشيء المفزع الذي يتسلل إلى أحلامك ليلاً ،
فيجعلك تصحو مذعوراً غارقاً في العرق البارد ؟

سأحكى لك يا د. (رفعت) ..

سأحكى لك أسطورتنا ..



٢ - معارفنا !

ما كان لأبي أصدقاء كثيرون ..
هذا متوقع بالطبع .. أنت تفهم شعور أثرياء ما قبل
الثورة هؤلاء الذين جاء التأمين ليأخذ منهم ما اعتبروه
حقهم الطبيعي .. وكان أبي منهم .. بعد هذا يكون
نفور الأصحاب منه تدريجياً .. ويدخل في طور التحول
ما بين (اللامتنمى) إلى الثورة .. و (المتسلل)
إليها .. على حد قول أديبينا العظيم (نجيب محفوظ) (*) ..
ربما كان بوسعي أن أعد أصحابه على أصابع اليدين ..
هناك الحاج (شعبان) .. خفير العزبة .. ذلك
العجز الأشيب ذو الشارب الكث الذى يأتى يوماً فى
أوقات غير مناسبة - كالغداء والنوم - ليعطى أبي
نقوداً ، أو يعطيه أبي نقوداً .. معًا يتداولان حديثاً
هامسًا من أحاديث (الأعمال) .. وعلى قدر علمى
كان (شعبان) دائمًا هناك .. وسيظل ..
هناك - كذلك - (عاصم بك) .. وهو واحد من الأعيان

(*) طبعاً لم تقل الفتاة هذا .. لكنني أحاول توضيح كلامها المفبك ..

السابقين ، ما زال يعيش فى الماضى حين كان يتذمّر
مع امرأته فى (النمسا) كل صيف ، ويقضى الشتاء
فى (سان مورتىز) .. يرتدى دوماً حلة وردية اللون ،
فى جيبها زهرة حمراء ، وعلى رأسه طربوش أحمر
فاقع اللون .. يصر على ارتدائه منذ أن أطّار
(أتاتورك) الطرابيش من فوق رءوس الأتراك
جميعاً .. ويصر على أن عرى الرأس (قلة قيمة) ..
و (عاصم بك) عجوز متصاب .. لا يفهم أن دوره
الزمن قد أطاحت بشبابه وماله .. لهذا يرتدى تكميل
الثياب المبهجة .. ويضع - صدق أو لا تصدق - ماكياجًا
كاملًا مكوناً من كريم الأساس والكحل وأحمر الشفاه ..
لكن محاولته هذه تزيده قبحاً وإعراضًا .. كأنه
مومياء وضعوا لها ماكياجًا لتبدو حية ..

إن أبي لا يثق بهذا الرجل .. ويؤكد أنه كان وصمة
على البشرية فى شبابه ، فمع هذا الرجل لم تجد
الثورة ما تصادره .. أضاع الأحمق كل شيء على
النساء والشراب وموائد القمار التى يؤكد أنها خضراء
دائماً ..

الخلاصة : من الممنوع على آية فتاة فى الدار أن



إن أبي لا يثق بهذا الرجل .. ويريد أنك كان وصمة على
البشرية في شبابه ..

يظهر كعبها عندما يكون (عاصم بك) عندنا ..
تصور أنه قد طلب يدى من أبي !

رأتني مرة واحدة واتا أناول صينية الشاي للخادمة
الريفية .. وكان هذا كافياً كى يصارح أبي بأنه يشعر
بالوحدة ، وأن الوقت قد حان ليجد من تونس وحدته ..
في كياسة أفهمه أبي أن فارق السن يتجاوز
الخمسين عاماً .. وأن حفيده يمكن أن تتجنبنى
بسهولة .. ثم بدأ يزداد غلظة وهو يقطع هذا المعتوه
بأنه لو أصر على هذا فلن يرحب أبي به فى الدار
مرة أخرى ..

وهكذا أغلق شيخنا قلبه على حبه الكسير !
الضيف الثالث من ضيوف أبي مهندس روى فى
الأربعين من عمره ، يدعى (محمود أبو طه) ..
رجل مهذب متأنف فى غير إفراط .. وإن كان له
عيوب خطير هو ولعه بالشعر ..
والشعر الذى يحبه المهندس (محمود) ويكتبه
ويقرؤه - كلما وجد من يسمع دون معارضة - هو
شعر المناسبات السخيف .. وأنا لا أفهم السبب الذى
يجعل إنساناً ينفعل بـ (عيد الفلاح) أو (وفاة وكيل

أول الوزارة) أو (عيد المحافظة) ، إلى درجة كتابة
قصيدة لا تقل عن ستين بيتاً .. كلها تنتهي بقافية
الألف على غرار (إقبالاً - آملاً - إجلالاً) أو (شباباً
- يباباً - مهاباً) ..

وكل أبياته محكمة لكنها مسطحة خالية من أي
شعور .. (كلام موزون مقفى) على حد تعريف
الشعر في الكتب القديمة ..

للمهندس (محمود) زوجة لطيفة هي (زينب) ..
امرأة متأنقة كزوجها لطيفة العشر ..

سرعان ما كانت ترك الرجال لمجلسهم ، وتدخل
إلى الغرفة التي نجتمع فيها نحن النساء ، أو تقف
معنا في المطبخ تعاوننا في إعداد القهوة ..

تلثم أمي على وجنتيها في اشتياق ، وتداعبها
مداعبات ذكية طريفة لا تفهمها أمي بالطبع .. فقط
تبتسم كاشفة عن أسنانها المتتساقطة وتهتف في مرح :

- « خطوة عزيزة يا (زينب) هاتم ! »
وتنطلق (زينب) هاتم تقرص هذه .. وتلطم هذه ..
وتدرج هذه .. و
- « لقد أزدلت جمالاً على جمال يا بنت يا (ه) ..

ترى أى شيء تطعمك ألم هذه المرأة الأرية ؟ وأنت يا (س) ؟ لقد صرت نحيلة كالقلم الرصاص .. إنك تحرقين نفسك في الدراسة دون جدوى .. وفي النهاية ستتزوجين وتتسين كل هذا الهراء .. هي ! صدقيني .. ليس للمرأة سوى البيت .. لن تصيرى (مى سلامه) مهما حاولت !
فتقول لها (س) مصححة :
- « اسمها (مى زيادة) يا طاطط .. (زيادة)
لا (سلامة) .. »

تفقول مدام (زينب) وهى تلوح بيدها فى استهتار :
- « قطيعة ! (زيادة) .. (سلامة) .. لا فارق ..
المهم هو ما نحصل عليه من سعادة فى حياتنا .. إن الأمر .. اللعنة ! إن زوجى يقرأ قصيدة جديدة بمناسبة عيد الحصاد .. سنعود إلى ديارنا مع الفجر ..
تببا ! .. وأنت يا بنت يا (ن) .. تزدادين جمالاً ..
ترى هل بلغت مبلغ النساء بعد ؟ هل أخبرتك الحاجة أم (هـ) بما سوف يطرأ عليك من ؟
فتقاطعها أمى فى حزم باسم :

- « حناتيك يا (زينب) هاتم .. لا أريد أن أفتح

عينيها على أمور كهذه .. إنها مجرد طفلة .. «
وهنا نسمع صوت الزوج يناديها من قاعة الضيوف ،
فتتسوئ ثيابها في عجلة ، وتلثمنا من جديد ، وتعود
إلى الترثرة :

- « يا (زينب) ! »

- « إن بعلى يناديني .. يا للأسف ! كانت قصيدة
قصيرة .. والآن أنا مضطربة إلى العودة .. سلام
يا بنات .. و ... »

- « يا (زينب) ! »

- « ألن تزورينا أبداً يا أم (هـ) ؟ وعدتني بهذه
الزيارة منذ أعوام ولم تفني بها .. «
ثم تنظر نحونا وهي تشير لأمى :

- « أمكن امرأة كسول ! »

فأقول أنا مدافعة عنها :

- « إنها تضل الطريق لو أبعدها ثلاثة خطوات عن
الدار .. فهي لا ترى الشارع أبداً ... »

- « يا (زينب) ! »

- « اللعنة ! » - تقول وهي تلثمنا للمرة الثالثة - :
« على أن أصرف الآن وإلا كان الطلاق حتمياً ! »

ويغادر هذا الإعصار الصاخب الظريف مطخنا ،
ونسمع عبارات اللوم من الزوج ، وعبارات الاعتذار
الحارة من الزوجة ..
عندئذ تنتهي أمي .. وتغمغم :
- « بنت حلال حقا ! »

وتدمع عينها .. ولا تسألني عن السبب طبعا ..
إن كل أم في الريف دامعة العينين حين تبكي وحين
تضحك .. يقتلها الحزن على من ماتوا من أحبائها ،
ويقتلها القلق على من عاشوا من أبنائها .. إن الحزن
هو شعيرة أساسية من شعائر الشخصية المصرية
خاصة الأمهات .. وهن يشعرون بذنب كبير حين يسمحون
للمرح بأن يتسلل إلى نفوسهن .. تعرف هذا من
العبارة الخالدة اللواتي يختمن بها ضحكتهن من القلب :

- « اللهم اجعله خير ! »
كأن الضحك ذنب يستحق عقاباً فادحاً ..

★ ★ ★

يأتي بعد هذا د. (نجيب) من أصدقاء أبي
وهو رجل وقور جداً .. صمودت كثيراً .. لكنه
يصفى دون ملل إلى شکوى أبي التي لا تنتهي عن
مشاكله مع النقرس أو التبول ..

فِي مَرَّة جَرَحْت رَأْسِي جَرَحاً بُلِيغاً وَأَنَا طَفْلَة ،
وَجَاءَ د. (نَجِيب) حَامِلاً خِيطاً أَسْوَدَ وَإِبْرَة .. و ..
كَانَ الْأَلْمُ لَا يُوَصَّف .. لَكُنِي تَحْمَلْت حَتَّى لَا أَبْدُو تَافِهَةَ
فِي عَيْنِ هَذَا الرَّجُلِ الْفَخْ ..

كَانَ يَدْخُنُ الْغَلِيُونَ بِاسْتِمْرَار .. وَكَانَ أَبِي وَ(عَاصِم
بَكْ) يَدْخُنُ (النَّارِجِيلَةَ) .. وَكَانَ الْمَهْنَدِسُ
(مُحَمَّد) يَدْخُنُ لَفَافَاتَ التَّبَغ .. لَهُذَا كَانَ لَدَارَنَا عَبْقَ
مَعِينَ لَنْ أَنْسَاهَ مَا حَيَّت ، وَلَا يَفَارِقُ الْغَرْفَ وَقَطْعَ
الْأَثَاثِ إِلَّا فِي عِيدَى الْفَطَرِ وَالْأَضْحَى حِينَ يَتَمْ تَنْظِيفُ
الْبَيْتِ كُلَّه .. وَفَتْحُ النَّوَافِذِ الَّتِي قَلَّمَا تَفْتَح ..

عَذْنَذْ كُنْتُ تَرَى أُمِّي وَ(أُمُّ شَفِيقَ) - الْخَادِمَةُ
الرِّيفِيَّةُ قَوِيَّةُ الْعَضْلَاتِ كَرَجْل - عَاكِفَتِينَ عَلَى الْكَنْسِ
وَغَسِيلِ الْأَرْضِيَّاتِ ، بَيْنَمَا فَتِيَّاتُ الدَّارِ يَقْمَنُ بِفَكِّ
السَّتَّائِرِ وَغَسْلِ أَغْطِيَّةِ الْأَرَائِك ..

لَمْ يَكُنْ لَدِينَا فِي الدَّارِ مِنْ خَدْمٍ سُوَى (أُمُّ شَفِيقَ)
وَ(هَنَاءَ) .. وَالْأَخِيرَةُ شَابَةٌ نَحِيلَةٌ شَاحِبَةٌ كَالْحَرَبَاءِ ،
بِلَهَاءٍ قَلِيلًا تَعِيشُ فِي عَالَمٍ لَا يَصْدِقُ مِنَ الْأَكَاذِيبِ الَّتِي
تَلْفِقُهَا بِبِرَاعَةٍ عَادِيَّة ..



تسألنى عن أقاربنا ..
 أقول : إنهم ليسوا كثيرين ..
 وهو لاء - غير الكثيرين - يزوروننا لماماً وغباً (*) ..
 هناك خالى (طه) وخلالى (عزت) .. وهناك عم
 لى يأتي كلما مرّت عشرة أعوام ، وكل هؤلاء الأقارب
 يأتون لفترات لا تتجاوز نصف الساعة ، وكلهم رسمي
 جداً .. لا يمزح .. ولا يسأل عن أحوالنا ، أشك فى
 أن أحد هؤلاء يعرف أسماءنا بدقة .. كما أنتي لا أذكر
 لقاء حدث بين أبي وخاللى .. أو أمى وعمى .. ولم أر
 أبناءهم قط

★ ★ ★

أما عن صداقتنا فإن لك أن تخمن أنها معدومة ..
 سنون طويلة قد مضت منذ كانت لى صديقة ما ..
 أمر عجيب .. لكنه - بالتأكيد - ليس مفزعًا ..
 فما هو السر الذى يجعل روايتنى هذه جديرة بإشارة
 هلعك ؟

أنا لم أفرغ بعد يا د. (رفعت) ..
 مازلت أحكى لك أسطورتنا ..

★ ★ ★

(*) على فترات متباينة ..

٣ - معتقداتنا ..

يقع منزلنا عند أطراف القرية ..
ويشأبه في تركيبه وأثاثه ونمط بنائه الشكل الذي
اصطلاح الناس على تسميته (دوارا) ..
المساحات الواسعة ، واللواح الخشب التي تحمل
السقف ، والأثاث المتنين المريح الذي يفتقر للأناقة ،
وقد تمزقت أجزاء من كسوة المقاعد وتم تغطيتها
بسجادة الصلاة ..

كل هذا يحمل طابعاً حميمياً محباً دون شك ..
وحين تغادر الدار تمر عبر فسحة تنتشر فيها أشجار
الليمون والبرتقال ، وثمرة كرمة عنب صغيرة .. ثم
تعبر بوابة خشبية قديمة إلى أرض فضاء .. خلف
هذه الأرض تقع مقابر القرية ..

★ ★ ★

لماذا يخاف الناس المقابر ؟
لم أستطع أن أفهم هذا فقط ..
لم أعرف في حياتي مكاناً أكثر أمناً وسلاماً من
مقابر قريتي .. أعرفها شبراً شبراً وأحفظ كل كتابة

ساذجة بالطشور على شواهدنا .. وأعرف عدد
المزروعات أمام كل قبر ..

لقد أمضيت صبای الأول ها هنا ، ألهو مع (س)
و (ن) ، ونلعب المساكة في هذا الفضاء العريض ..
وها هنا رحت أراجع دروسى قبل امتحان السنة
الإعدادية ، وقد تناثرت الكتب حولى ، ورحت أكرر
بلا كلل تاريخ الدولة العثمانية وكيف كان (محمد
على) يلعب باليبيضة والحجر .. كل هذا وأنا أخشى
أن يهبط الظلام علىَ فلا أتمكن من مراجعة الكتاب
كله .. رائحة زهور البرتقالقادمة من مكان ما ،
ورائحة الهواء الجاف ، وأعراض الربيع التي تتحرك
في روحي المراهقة فتنسعها بألف سوط ..
عندئذ كنت أبكي دون سبب ..
ونماذا - إذن - يخاف الناس المقابر ؟

★ ★

لكننا لم نذهب إلى المقابر قبل الظهيرة فقط ..
كنا لا نخاف الموتى .. لكننا نمقت البشر الأحياء
كثيراً .. وكلهم كانوا هناك في فترة الصباح قبل أن
تعتل الشمس متن الأفق ..
كنت أعرف بعض الوجوه والأسماء ..

فهذه (هند) وهذه (عفاف) وهذه (عواطف)
وهو لاء أمهاهن .. بعضهن نصف فلاحات مثنا ..
وبعضهن فلاحات تماماً مثل (أم شفيق) ..
لكنهن كن يتحاشيننا بذات الأسلوب الذي نتحاشاهن
به .. إن هي إلا هزة رأس عابرة منها نا .. وعبارة
على غرار :

« كيف حالك يا (هـ) ؟ سلامنا للحاجة .. »
لم نكن متعاليات .. لكن أبي علمنا أن الآخرين شرـ
دائماً .. وأنه كلما قل عدد معارفك كلما ازدادت حرية
وسلاماً ..

ربما كان لهذا جذور من صدمته بعد زيجته الأولى ..
وبعد التأمين .. والنتيجة هي أننا نشأنا منغلفات
كالواقع .. تعلمت في ثلاثة مدارس ، لكنني لم أحظ
بصديقه واحدة يمكن أن أدعوها صديقة .. كان هناك
ذلك الإبهار الأولى بسحرى وجمالى .. وتصمم إحداهن
على تعرقى .. فلا تظفر مني سوى بالصمت والفتور ..
الأسرة .. الأسرة .. هي الشيء الوحيد الجدير
بالثقة والذى يستحق أن نعمل جمیعاً من أجله ..
هكذا ربينا .. وكذا نشأنا .. وهذا هو ما صرناه ..

★ ★ ★

كانت أمى تؤمن بالسحر كثيراً ..

فهى من النساء القرويات اللواتى لم ينلن أى تعليم ..
وكل ثقافتهن تتحصر فيما سمعنه من جداتهن عن
(خاتم سليمان) و (العمل) و (الآخر) و (العفاريت
مشقوقى الأعين) و (طاقية الإخفاء) .. وما إلى
ذلك ..

كانت ترى العفاريت فى كل مكان .. وتؤمن أنهم
معنا فى كل ركن من الدار .. وأحياناً كانت توجه
التحية لهم ..

إذا جاء يوم الجمعة تصاعدت رائحة البخور ..
ودوى صوت طقطقة الملح ..

إذا مرضت واحدة منا .. أشعلت أمى البخور
وراحت ترقى بها عبارات غريبة جداً معقدة على غرار :
- « يا فسوخ يا فسخاتى .. امنع عمل اليهودى
والنورانى .. واللى له غرض تانى .. ! »

ثم تحرق عروساً بدائية تصنعها من الورق ،
وتغرس فى كل موضع من جسدها دبوساً وهى تكرر
عبارات الرقية المسجوعة ..

حين ينتهى الاحتراق كنت تجد كتلة من الرماد
الأسود لها شكل ما .. أى شكل عشوائى ..

عندئذ تهتف أمى فى انتصار إن الرماد اتخذ شكل
(أم هند) أو (أم خديجة) أو أى أم أخرى من
الجيران .. وتأكد لنا وجهة نظرها :

- « هل ترون ؟ ها هى ذى العينان .. والأنف
المحدب .. والشعر المجمع .. إنها هى .. »
الواقع أن إيمانها هذا كان يتكلل بجعلنا نرى
ما تعنيه .. وتدريجياً نجد أن الرماد هو بعينه (أم
هند) أو (أم خديجة) .. وهذا دليل لا يدحض على
كونها هى من حسدت مريضتنا أو مريضنا ..
أما أن يتتابع الشخص فى أثناء رقىء فهذا دليل
آخر على كونه محسوداً ..

* * *

في يوم من الأيام جاء صياد حاملاً سلة بها بعض
الأسماك التي اصطادها من الترعة المجاورة ..
كانت هناك بعض أسماك (القراميط) حية تتحرك
وتتلوي .. وكانت أمى تتفحص السلة حين هفت فى
هلهل :

- « يا للكفرة .. أبناء الكفرة ! »
والقططت بكفها سمكة تتلوي .. ورفعتها فى الضوء
لترينا إياها ..



والتققطت بكفها سمكة تتلوى .. ورفعتها فى الضوء
لترينا إياها ..

كانت هناك كتابة على جلد السمكة بحبر لا يمكن إزالته .. ولما وجدتنا لم نفهم بعد ، هتفت في جزء : - « هذا عمل ! من أتجس أنواع الأعمال وأبشرها .. الكتابة على جلد (القرموط) .. لا يمكن العثور عليه أو فكه .. إن البائس الذي كتب هذا العمل من أجله لا يجد ساعة راحة واحدة .. »

وبيد خبيرة وقوسة لم نعهدنا فيها .. تناولت سكيناً عملاً وراحت تقطع السمكة إلى شرائح .. ثم ناولتها للبائع في تنبيهة خلاص : - « سأنقذك ثمنها .. لكن عليك أن تلقى بها إلى الترعة من جديد .. »

هزَ الرجل كتفه في لا مبالاة .. وحمل سلطنه واتصرف .. هذا هو المناخ الذي عودتنا أمي عليه ، وقد يبدو كل هذا نوعاً من السخف والهراء ؛ لكنه كان حمياً وجزءاً لا ينفصل عن كيانها الطيب القدري .. لهذا أحబنا كل هذا لأنه منها ..

★ ★ ★

كان لا بد أن يطفو السؤال على سطح وجدان أمي .. لماذا لم أتزوج بعد برغم بلوغني السابعة والعشرين من العمر ؟

بل - الأدھى - لماذا لم یتقدم لى أحد قط ؟!
كانت تعرف الجواب .. كلنا كان یعرف الجواب ..
لکنها - كالعادة - راحت تفتش فی دیاجیر الطلاسم
والأحجبة والأعمال المدفونة على عتبات البيوت ..
بعض کلمات تبادلتها مع (أم شفيق) .. ثم قامت
المرأة بما طلب منها .. وجاءنا الشیخ (بسیونی)
الذی یقطن علی مرمى حجر من دارنا .. وهو رجل
أشیب معهم خبیث الراحة والنظرات .. وأننا لا أمقت
فی العالم شيئاً مثل هؤلاء النصابین الذين یتظاهرون
بالتدين ؛ بينما هم یمارسون السحر الذی قرنھ
الإسلام بالکفر ..

جاء الرجل وأشعل الكثير من البخور ، وقرأ بعض
قراءات زعم أنها باللغة السريانية ..، ثم أعلن أن
هناك (عملاً) مدفوناً فی المقابر ، وأن إحدى
الجارات الحاقدات علی قد صنعته لى وأن هناك
شروط لاستخراجھ ..

صحت في أمي بعنصبية :

- « ماما .. لن تصدقى هذا السخف ! »

- « ش ش ش ش ش ! »

إصبع سبابة على شفتیها يندرنی من التمادی فی

هرطقى ، وراحت تصيخ السمع لما ي قوله هذا المشعوذ ..
و حين عاد أبي إلى الدار ، صارت حنته بما حدث اليوم ..
كنت أعرف أن هذا سيثير إعصار حنقة على أمي ..
لكنني لم أرد أن يدور هذا الهراء في داره دون علمه ..
وعلى الفور نادى أمي ، وقد ارتسمت الشراسة
على ملامحه .. ثم هتف محنقاً :

- « إذن أنت تسمحين لهؤلاء النصابين بدخول الدار
في غيابي .. وتجعلينهم يعرفون من أسرارنا الخاصة
ما لا يرى نور الشمس .. ثم تشرثرين في كل صوب
أن ابنته صارت عانسًا .. إن هذا الرجل كافر يا امرأة ..
كافر لأن (من نفت في عقدة فقد كفر) .. »
بالطبع لم تفهم أمي معنى (النفت في العقد) برغم
أنها تستعيذ بالله من (شر النفات في العقد) عدة
مرات يومياً ..

كان الدرس قاسيًا مريراً لكنه ضروري ..
ومن يومها لم تغد أمي لهذا الحديث .. لكنني
أعرف أنني أسبب لها مشكلة دائمة .. إن العانس
القبيحة محتملة .. أما العانس الحسناء فأمر لا يمكن
السكوت عليه ..

المشكلة التالية كانت أختي (س) التي ستتخرج

قريباً .. ولن يطرق بابها عريس .. لماذا؟ كنـ
يعرف السبب لكنـنا لا نعترف به لأنـفسنا ..
وأمى لا تعترف بكل الهراء المثقـف عن استقلـلـ
المرأة ودورـها البناء فى المجتمع .. و ... و ... إنـ
كل الغرض من وجود المرأة فى الحياة عندها هو أنـ
يتزوجـها أحدهـم .. وأنـ تلد وترضع وتربي نساء
آخـريـات يتزوجـهن آخـرون ..

* * *

الحق يا د. (رفعت) أنـ لـى جانبـي العاطـفى ..
لمـ لا؟ ألسـت أنتـ منـ لـحم ودم؟
سـأتجاوزـ عنـ خـيـالـاتـ المـراـهـقـةـ المـبـهـمـةـ التـرـ تـمزـجـ
حبـ الطـبـيـعـةـ .. بـحبـ الـحـيـوـانـاتـ الصـغـيرـةـ .. بـحبـ
الأـغـانـىـ .. وـتصـنـعـ مـنـ كـلـ هـذـاـ كـيـاـنـاـ غـامـضـاـ بـلاـ اـسـمـ
أـهـيمـ بـهـ حـبـاـ ..

كـانتـ عـاطـفـتـىـ تـجدـ مـتنـفـسـاـ لـهـاـ فـىـ مـعـاـونـةـ عـنـزـةـ
تلـدـ .. أوـ وضعـ بـضـعـ هـرـيرـاتـ وـلـيـدـةـ فـىـ صـنـدـوقـ مـنـ
الـورـقـ المـقـوىـ ،ـ وـالـخـروـجـ بـهـاـ إـلـىـ الشـمـسـ ..ـ اوـ
وضعـ زـهـرـةـ فـىـ شـعـرـىـ ..

وـالـحـقـيـقـةـ أـنـ صـورـةـ الرـجـلـ فـىـ ذـهـنـىـ كـانـ دـوـمـاـ
صـورـةـ أـبـىـ ..ـ الـأـمـرـ الذـىـ كـانـ عـسـيـرـاـ أـنـ أـجـدـهـ فـىـ أـىـ
فتـىـ مـنـ سـنـىـ ..

ثم بدأت أتمو .. وافهم أن هناك رجالاً آخرين غير أبي .. ومن المفهوم أن من حقى أن أحصل على أى واحد منهم عريساً في اللحظة التي أقرر فيها ذلك .. وكان في قريتنا عدد لا يأس به من الشبان المتعلمين وعلى قدر ما من الثراء .. ومنهم من هو جميل الصورة ..
لكن واحداً منهم لم يتقدم لى .. ولا تسأل عن السبب ..

وعندما ظهر (ع) في حياتي ؛ كنت قد بدأت أعد نفسي لرحلة الوحدة الأبدية دون رفيق درب ودون أطفال ..

كان (ع) وجهاً جديداً في قريتنا .. مدرساً شاباً جاء من المركز لمدرسة القرية الابتدائية .. وكان يسافر يومياً - إن كانت رحلة الدقائق العشر إلى المركز تدخل في نطاق السفر - رافضاً عدة عروض للإقامة في القرية ..

لم يكن متزوجاً ، وكان لطيفاً مهذباً ، حرك حلم الزواج لدى كل بنات القرية الحاصلات على شهادة أقل من شهادته .. أو غير المتعلمات اللواتي تمنين لو كان يرغب في زوجة أمية ..

دوماً كانت عدسة المجهر مسلطـة عليه ، وبدأت
الفتيات يترددن أكثر من اللازم على المدرسة
لاصطحاب أخواتهن .. وراحـت الأمهـات يزرن المدرسة
- بحـجة الاطمـنان على الأنجـال - ليتفـقدنـه بنـظـرة نـاقـدة
مدقـقة .. هل يصلـح لابـنتـي فـلاتـة ؟

كان خـجـولاً .. وحين يـحـمر وجهـه فيـ هـذـه المـوـاقـفـ
كـانـتـ كلـ أمـ تـقـرـرـ أـنـهـ يـصـلـحـ بـالـتـأـكـيدـ لـابـنـتهاـ ..
إـنـ المـدـرـسـتـينـ الإـعـدـادـيـةـ وـالـابـتدـائـيـةـ مـتـلـاـصـقـتـانـ فـىـ
قـرـيـتـىـ .. وـقـدـ اـعـتـدـتـ أـنـ أـقـصـدـ الثـانـيـةـ فـىـ مـيـعـادـ
الـاـنـصـرـافـ لـاصـطـحـبـ أـخـىـ (ـىـ) .. ثـمـ أـنـتـظـرـ (ـنـ)
عـنـدـ خـرـوجـهـاـ مـنـ الـأـولـىـ .. وـنـعـودـ مـعـاـ إـلـىـ الدـارـ ..
وـكـانـ ضـرـورـيـاـ أـنـ يـرـانـىـ (ـعـ) .. وـبـالـتـالـىـ يـهـيمـ بـىـ
حـبـاـ وـلـاـ أـلـوـمـهـ كـثـيرـاـ عـلـىـ ذـلـكـ ..

وـهـيـنـ قـابـلتـ أـخـىـ (ـىـ) فـىـ ذـلـكـ الـيـوـمـ عـنـ
مـغـارـتـهـ المـدـرـسـةـ ؛ـ كـانـ -ـ كـعـادـتـهـ -ـ يـرـتـدـيـ المـرـيـوـلـةـ
الـقـدـرـةـ الـتـىـ مـسـحـ بـهـ الـأـرـضـ مـسـحـاـ .. وـشـعـرـهـ ثـانـرـ
مـبـعـثـرـ .. وـالـجـروحـ تـمـلـأـ وـجـهـهـ وـسـاقـيـهـ .. وـقـدـ تـمزـقـتـ
يـدـ حـقـيـيـتـهـ فـتـدـلـتـ الـأـخـيـرـةـ عـلـىـ الـأـرـضـ ..
عـنـدـمـاـ تـرـىـ (ـىـ) عـنـدـمـاـ يـدـخـلـ المـدـرـسـةـ صـبـاحـاـ
تـرـىـ أـحـدـ أـبـنـاءـ الـذـوـاتـ الـمـتـأـقـنـينـ ..ـ لـكـنـهـ لـاـ يـخـتـلـفـ عـنـ

أترابه ذوى (المخالى) عند مغادرته للمدرسة ..
وهذا يسره لأنه يلغى اختلافه عنهم .. ولأنه - كدين
من فى مثل سنه - يعتبر الأناقة والنظافة علامتين
على الألوة والتدليل ..

قال لى (ى) ضاحكا :

- « الأستاذ (ع) يسأل عنك ! »
احمر وجهى - لأنى شعرت بالدم يصفر فى أذنى -
وتساءلت :

- « لماذا ؟ »

- « لا أدرى .. »

- « وماذا قلت له ؟ »

- « أجبت عن أسئلته طبعا .. »

لدغته .. واعتصرت أذنه بين إبهامى وسبابتى ،
معنن أنه ليس رجلا ، وأن المفترض ألا يفتشي أسرار
شقيقاته ، ما دام هذا المعلم لا يمت لنا بصلة قربى ..
لكنى - بينى وبينك يا د. (رفعت) - لم أكن
غاضبة إلى الحد الذى تظاهرت به ..

★ ★ *

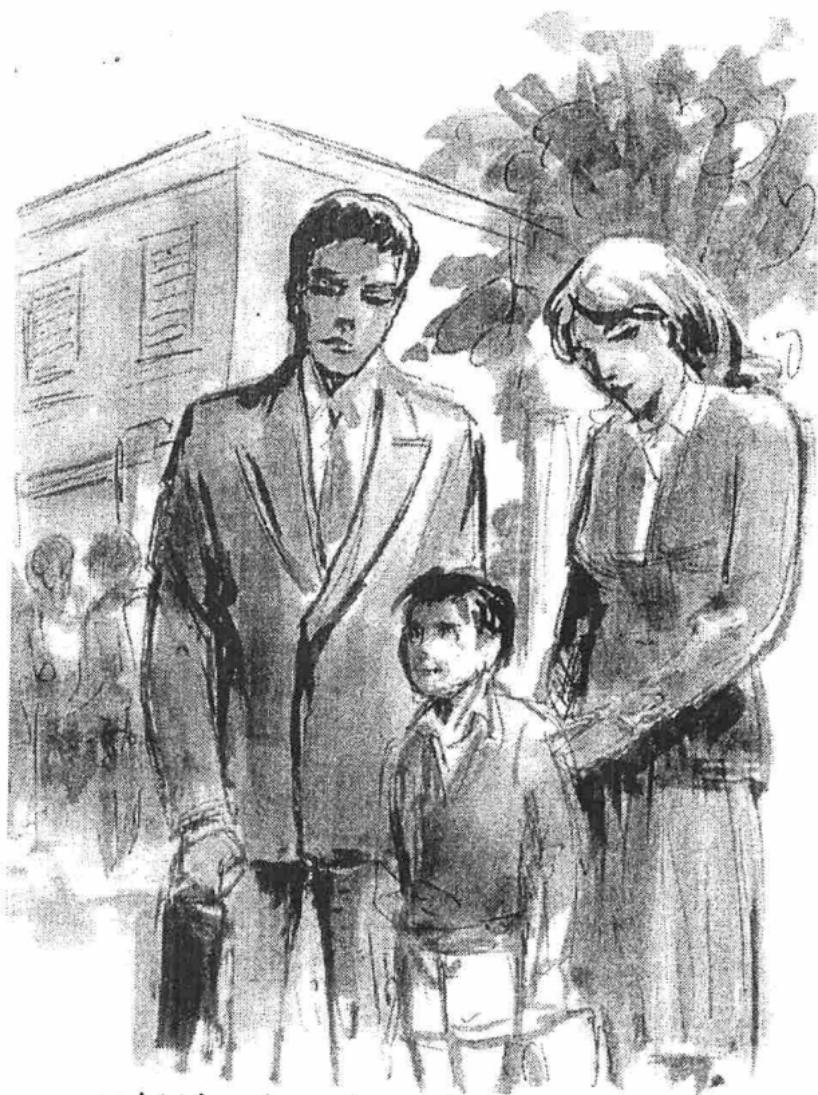
سأوفر عليك الملل إذن ، ولا أطيل فى وصف
محاولات المدرس الشاب لكسر حاجز الخجل والتحفظ
كى يتقرب إلى ..

إن الأطفال والحيوانات هم أفضل ذرائع لكسر هذا
الحاجز .. وكلتا الطبيعتين متوافرتان في (ى) الذي
هو طفل وقد صغير في نفس الوقت ! وكان لا بد من
تدرج الحوار بينما حول (ى) .. تحصيله الدراسي ..
شيطنته .. إلخ .. إلخ ..

وبعد ستة لقاءات كنا قد غدونا متعارفين ..
لا أعني باللقاء ما تعنيه اللفظة .. إن هي إلا عشر
دقائق وقت اتصاف التلاميذ ، وسط قطعاتهم الثائرة ،
جوار بوابة المدرسة ، ويتم الحوار همساً وسريعاً ..
وكلانا ينظر إلى جهة أخرى كأنما يوشك على الرحيل ..
هل ملت إليه ؟

لا أدرى حقاً .. إن اضطراب العواطف في بينة
منغلقة يدعوك إلى خداع نفسك سريعاً .. يكيف وجود
شخص مناسب تتركيب عليه هذا الحشد من العواطف
الجاهزة المتراكمة في صدرك ..

سرعان ما تظهر أغانيات (أم كلثوم) .. وقصائد
(ناجي) .. والوردة الحمراء إليها .. كأنما كانت هذه
الأشياء تنتظر ظهور الشخص المناسب في المكان
المناسب ، فلا تمهدك لحظة حتى تسأله نفسك : أترانى
أحبه حقاً ؟



يكفيك وجود شخص مناسب تركب عليه هذا الحشد من
العواطف الجاهزة المتراكمة في صدرك ..

أنت ناضج يا د. (رفعت) ويمكنك فهمى دون
عناء ..

قال لى (ع) ذات مرة فى لقاءاتنا المسروقة :

- «إن (ى) ولد ذكى .. لكن الأطفال يضايقونه ..»

- «يضايقونه ؟»

- «إتهم يسخرون منه .. كأن هناك سرًا ما يتعلق

بأسرتكم .. وهم يهددون بإفشاءه !»

قلت فى ضيق :

- «لو كان هناك سر فأرجو أن يعلنوه ..»

- «لم أقصد مضايقتك .. لكن هذا هو الانطباع
الذى خلفوه لدى ..»

وساد الصمت الثقيل هنيهة .. بعدها كرر أسفه ..

كانت هذه هي مشكلتنا ..

إتنا نختلف عن الآخرين فى أشياء كثيرة ..

ومن هنا جاءت أسطورتنا



٤ - صداقاتنا ..

سوف أقص عليك الآن قصة طريفة عن شقيقتي
(س) ..

أنت تعرف أنها تقيم في القاهرة .. في مسكن
للطلاب طيلة فترة الدراسة ، حتى إذا جاءت العطلة
عادت إلينا ..

إن (س) أقل جمالاً مني وأقل ذكاء .. هذه حقيقة ..
ربما هي طالبة في الجامعة .. لكن الشهادات لا تدل
على الذكاء أكثر مما تدل المسبيحة على الإيمان ..
لكن (س) أكثر اندماجاً في المجتمع ، وأكثر تقبلاً
لأفكار وجود الآخرين ..



غرفتها مزدوجة في المسكن ..
تقيم معها طالبة في كلية العلوم تدعى (نرمين) ،
وهي فتاة هادئة رزينة صمود ..
وفي المساء كانت الفتاتان تجلسان - كل واحدة
على فراشها - تدرسان وقد انتشرت كتبهما على

الفراش ، ولا بأس من تبادل بعض الأحاديث .. أو قيام
واحدة منها بمساعدة الأخرى على تصفييف شعرها ..
في الحادية عشرة مساء يدق الباب ..
وتدخل إلى الغرفة (هيام) ..

(هيام) طالبة علوم في عامها النهائي .. جميلة
إلى حد لا يصدق - على حد قول (س) - تتمتع بروح
دعابة هائلة ..

وسرعان ما تخلع خفيها ، وتبث إلى الفراش جوار
(س) .. ربما تدخل معها تحت الغطاء .. وتصرخ
في المرح :

- « البرد قاتل .. إن حجرتكما أدفأ حجرة في هذا
المنزل .. »

وتنهض (نرمين) ضاحكة لتعده ثلاثة أكواب من
الشاي الساخن .. ووجبة مرتجلة من الفول والبيض
وأى شيء يتصادف وجوده في الحجرة ، فلو وجدت
حذاء قديماً لأضافته إلى الخليط ..

لحظات من المرح لا يمكن أن يمر الليل بدونها ..
ومن أجلها تنتظر (س) و(نرمين) نهاية اليوم في
سوق ..

إن (هيام) تعانى من أن زميلتها فى الحجرة ثقيلة
الظل تفتقر لروح الدعاية .. وهى - تقول (هيام) -
طالبة طب تشير هلعها بكل العظام التى تكدها فى
الحجرة .. عظام بشرية طبعاً ..

- « إن طالبات الطب هؤلاء » - تقول (هيام) -
« يفقدن أنوثتهن وشبابهن سريعاً .. يصعب علىَّ أن
أصدق أن شريكة حجرتى هى فتاة فى ميعدة الصبا ..
بل هى أقرب إلىَّ شيخ طيب القلب لا ي肯ف عن
تفحصى فى حكمة من فوق إطار عويناته .. »
وتربع علىَّ الفراش لتحسو جرعة أخرى من الشاي
وتقول :

- « ألن تأتينا إلىَّ حجرتى أبداً؟ »

فتقول (نرمين) فى استبسال :

- « بعد كل هذا الوصف؟ مستحيل .. »

ثم إن حجرتها فى الطابق الثالث .. ومنذ أن أنشئ
هذا المسكن والعلاقات علىَّ غير ما يرام بين طلبة
الطابق الثانى وطلبة الطابق الثالث .. فهذا الأخير
تعمره طالبات الطب المتحذلقات المغروفات قليلاً ..
واللواتى يتضايقن لو لم تناديهن الآخريات بلقب
(دكتورة) ..

الخلاصة أن هذا الثالوث وجد في الصداقة ما ينسيه
مرارة الغربة ..

★ ★ ★

حدث تافه وقع في كلية العلوم التي تدرس فيها
(هيام) .. حادث لا أهمية له لكنه صخرة تقع في
بركة الملل اليومى محدثة دوائر ودوائر ..
لقد طلق أحد الأساتذة شناك زوجته ، ليتزوج من
طالبة عنده تصغره بثلاثين عاماً ..

وكان هذا الحادث شهيراً في تلك الأونة ، وتسرب
خبره إلى كل الكليات تقريرياً .. وعرفته (نرمين)
التي تدرس في كلية علوم أخرى .. وكان لا بد من
الثرثرة والقيل والقال ..

وحين جاءت (هيام) في تلك الليلة ، سألتها
(نرمين) وهي تعدّ الفول إيه :

- « كيف حال الفضائح عندكم ؟ »

هزت (هيام) كتفها في لا مبالاة :

- « كالمعتاد .. »

- « أعني ماذا يقولون عن (م) ؟ »

و (م) هذه طبعاً هي الطالبة التي تزوجها أستاذها ..

لكن (هيام) هزَّ كتفها من جديد في غير فهم ..
وغمقت :

- « (م) من ؟ »

- « (م) التي تزوجت من د. (ر) ؟ »

- « لا أعرف .. أعني لم يصلني هذا الخبر ..
هل تزوجته حقاً !! »

وضعت (نرمين) الملعقة في الكسرولة ، ودفت
بيضتها في خصرها واستدارت لتواجه (هيام) :

- « إذن أنت الوحيدة في العالم التي لم تعرف هذا ..
هل كنت نائمة في الكهف مع كلبك ؟ »

- « إن جهل المرء بالفضائح يزيده شرفًا .. وأنا
لا أعبأ بهذا الهراء .. »

تدخلت أختي (س) لتنهى المحادثة .. لكن
(نرمين) ظلت غير مصدقة أن (هيام) تجهز كل
شيء عن الموضوع .. والأستاذ (ر) أستاذ كيمياء ..
أى أنه في نفس القسم الذي تدرس فيه (هيام) ..
وقد دفعتها هذه الدهشة إلى بعض الإجراءات الغريبة ..
كانت تملك خبرة كيميائية لا بأس بها - برغم
كونها في قسم الجيولوجيا - لذا أمسكت كتابها ،

وراحت تسأل (هيام) عن بعض المعضلات الكيميائية
التي لم تستوعبها في دراستها .. لكن (هيام) أعلنت
في إصرار أنها جاءت لها هنا لتمرح وتضحك .. ولم
تأت لتدرس ..

★ ★ *

منتصف الليل بعد ما رحلت (هيام) :
في الظلام تجلس الفتاتان مضمضتين كل على
فراشها .. وصوت دقات المنبه الرتيبة .. تك تك تك
تك تك ! «

بعد دقائق همست (نرمين) بصوت ناعس ،
دعاهما إليه شعورها بأن الظلام يجسم الأصوات أكثر
من اللازم :

- « (س) .. هل نمت ؟ »
بصوت مماثل همست (س) وقد أغمضت عينيها :

- « لا .. ليس بعد .. »

- « أنا أشك في أمر (هيام) هذه ! »
مرت هنيهة .. ثم فتحت (س) عينيها وتساءلت :
- « ماذا تعنين ؟ »

- « إنها تزعم أنها طالبة علوم .. ومن المستحيل
الآن تسمع طالبة علوم بـ ... »

قاطعتها فى سأم متناثبة :

- « هاًاه .. فلنقل إنها لا تحب الشائعات .. »
- « ومعلوماتها فى الكيمياء .. لا تزيد على معلومات طفل .. »

- « وماذا فى ذلك ؟ إن شخصية مرحة كهذه قلما تدرس .. ثم ما الذى تعرفيه أنت عن (الجيولوجيا) ؟ »

- « لا زلت غير مستريحة .. »

- « أرى أن النوم علاج ناًاجع للعقل المريضة .. »
ونامت (س) تاركة (نرمين) تتحقق فى الذلام ..
و قبل أن تنام بدورها كانت قد أزمعت أمرا ..

★ ★ ★

كان أول ما فعلته (نرمين) فى الصباح قبل مغادرة المسكن ، هو أن تمر على مكتب المدير لتسأله عن (هيام أبو الفتح) .. وكان الحماس شديداً فى الصباح .. لكن المدير أخبرها أن هناك (هيام) فى الطابق الثالث تعيش فى غرفة واحدة مع طالبة طب ذات عوينات ..

لا بأس .. أراحتها هذا قليلاً ..



ونامت (س) تاركة (نرمين) تحدق في الظلام ..

ذهبت إلى كليتها ، وحضرت دروس الصباح كلها ..
لكن قوانين المصادفة كانت تخبي لها مفاجأة صغيرة :
(عفاف) ..

(عفاف) صديقتها وابنة مدینتها التي تقيم هي الأخرى في القاهرة .. والتى تدرس العلوم في كلية أخرى غير كليتها ..

كانت (عفاف) في المكتبة تبحث عن مواد بحث طلبه منها أساندتها ، ولم تجد ما تريده في مكتبة كليتها ..

وكان عناق .. فقبلات .. فأسئلته لا حصر لها ..
- « في أي سنة أنت يا (عفاف) ؟ إن الأمر قد اختلط على .. فأنت من هواة الرسوب .. »
هذت (عفاف) رأسها .. ونثمَت ظهر كفها :
- « حمداً لله .. إنها السنة الأخيرة .. لقد قتلتني دراسة الكيمياء هذه .. قلت لأبي مراراً إننى لا أصلح سوى للزواج و »

هنا وجدت (نرمين) الفرصة السانحة :
- « هل تعرفين (هيام أبو الفتوح) ؟ »
قطبت (عفاف) جبينها محاولنة التذكر :

- « (هيام) ؟ هل هى زميلتنا ؟ »

- « بالطبع .. علوم قسم كيمياء .. فى السنة
النهائية .. »

- « لا أعتقد .. ولكن .. » - ثم بللت بلسانها
شفتها السفلی - « لا .. لا توجد عندنا (هيام) ..
بالتأكيد .. إن دفعتنا صغيرة ومن الصعب أن ... »
ثم أشرق وجهها ، وواصلت الترثرة :

- « ترى هل خطبت ؟ ماذا عن المهندس
الذى »

لكن ذهن (نرمين) تحول إلى خلية نحل فلم تسمع
 شيئا ..

★ ★ ★

إذن الفتاة مزيفة .. (هيام) ليست كما تزعم ..
من هى ؟ وكيف تسألت إلى مسكن الطالبات ؟
وكيف ظلت تخدعها وتخدع (س) خمسة أشهر
كاملة ؟

ما هى الاستفادة التي تحصل عليها ؟ لا بد من
استفادة ما .. ربما كانت (هيام) رجلاً متغرراً و !
اقشعر بدنها للفكرة ثم طرحتها سريعاً .. إن (هيام)

دون شك فتاة .. فتاة تخدعهما لغرض فى نفسها ..
ولكن ما هو ؟

★ ★ ★

حين عادت إلى المسكن قبيل المغرب ، صعدت إلى الطابق الثالث وسألت ساكنة الغرفة الأولى عن غرفة (هيام) ..

أشارت لها إلى الباب الخامس .. فقرعته .. سمعت من الداخل من يدعوها لفتح الباب .. كانت هناك فتاتان وكثير جداً من العظام البشرية .. أما الأولى فكانت جالسة على مكتب معدني صغير تدرس في كتاب هائل الحجم .. كانت ترتدي العوينات وتبعد كعجوز طيب القلب .. إذن أنت طالبة الطب .. قالتها لنفسها وتأملت الفتاة الأخرى التي كانت تلف شعرها حول أسطوانات (الرولو) أمام المرأة ..

سألتها الثانية في ارتياب :

- « هل تريدين شيئاً ؟ »

- « أبحث عن (هيام) .. »

- « أنا (هيام) .. وأنت ؟ »

قالت فى ارتباك وهى تغلق الباب ببطء خارجه منه :

- « أبحث عن (هيام أبو الفتوح) .. »

- « لا ! توجد (هيام عبد المحسن) لو كانت تصلح ! »

وهنا كان الباب قد انغلق .. وعادت (نرمين)

تهبط فى الدرج إلى غرفتها بالطابق الثاني ..

إذن الفتاة (هيام) تعرف أمر هذه الغرفة .. ولهذا

زعمت أنها تقطن فيها .. هذا يفسر ما قاله المدير

عن وجود (هيام) فى الطابق الثالث ..

هنا تدخلت الصدفة من جديد فى صورة العاملة

العجزة البدينة ، تلك المرأة التى يجثم الشحم على

قلبها فلا تفعل شيئاً تقريباً ، لكنهم يبقونها فى المسكن

على سبيل التبرك .. اسمها (فاطمة) والطالبات ينادينها

بـ (دادة فاطمة) .. ويبدو أنها ها هنا منذ الأزل ..

كانت المرأة عاكفة على صعود الدرج ، تجر أمامها

وخلفها قناطير مقتطرة من الدهن حتى كادت تلقي

حفلها بسكتة قلبية .. فلما رأت (نرمين) هشت

وبشت لها .. وراحـت تلهـث تعـبـيراً عن المـودـة ..

سألـتها (نرـمـين) بعد تـبـادـل التـحـيـات :

- « هل تـعـرـفـينـ منـ تـدـعـىـ (هـيـامـ أبوـ الفـتوـحـ)

يا دادة ؟ »

ووصلت المرأة اللهاش واستندت إلى (الترابزين) ..
وقالت :

- « لا يا بنىتي .. لا أحد هنا بهذا الاسم .. »

ثم - بعد تفكير - أردفت :

- « كانت هناك واحدة بهذا الاسم منذ أعوام ..
كانت جميلة كأنقمر خفيفة الظل كالشربات .. طالبة
علوم على ما ذكر .. إن السن يتقدم بى ولم أعد
أتذكر ما أكلت على الغداء .. ثم داء السكري هذا »

- « وأين هي الآن ؟ »

- « بالتأكيد هناك .. حيث لا يعود أحد ... ! »

- « لماذا تعنين ؟ »

صمصت العجوز بشفتيها .. وغمغمت :

- « رحمة الله ! لقد حملت جسدها الشاب بهاتين
اليدين .. ولكن .. حين تكونين فى عمرى يغدو
الموت رفيقا يومياً لا يثير رعبك .. لماذا شحت
هكذا يا بنىتي ؟ اغفرى لى هذا الحديث المقبض ..
ولكن .. لماذا تسألين عنها الآن بالذات ؟ ! »

★ ★ ★

الآن عرفت يا (س) كل تفاصيل القصة ..
كانت (نرمين) ترتجف كورقة .. وبدت قصتها

مهشمة غير مترابطة ، فلم تتضح أجزاؤها إلا مع
السرد الثالث ..

وظلت (س) تتأملها وهي تحكى دون تعليق ..
حتى إذا ما انتهت من الكلام قالت لها :
- « دعك من هذا الهراء .. إنها قصص تصلح
لإفراط الأطفال .. »

- « حقا ؟ ونماداً أوشك على الموت رعيا ؟ »
- « لأنك تمكين عقل دجاجة يا ملاكي .. »
هبت (نرمين) في عصبية .. وصاحت :
- « ربما .. لكنى لن أنتظر ثانية واحدة بعد هذا ..
ساملاً الدنيا ضجيجا .. ولسوف أجلب المسؤولين
ليحققوا مع هذا إل .. شيء .. »
- « كونى عاقلة يا حمقاء .. إن هذا »
« لن أنتظر حتى تدخل هذه الجثة الحية غرفتي ! »
وأتجهت للباب لتفتحه ..
حين دوى صوت الطرقات الرقيقة على باب الحجرة ..
طرقات تعرفان صاحبتها تماما



٥ - شقيقة ..

والآن نترك الصديقتين فى هذا المأزق غير المألوف .. كى نتعرف بشكل أفضل حياة أخي الصغير (ى) الذى - كما قلت لك - هو (ديك البرابر) و (آخر العنقود) فى بيتنا العاشر ..
لم يتعلم (ى) بعد القواعد الصارمة لدارنا .. لكنه بدأ يفهم أننا نختلف عن الآخرين إلى حد معين ..
كان يعرف أن هناك أشياء غير مألوفة تجرى فى دارنا .. لكنه - بحكم سنه الصغير - كان عاجزاً عن فهمها ..

وفي المساء حين يأتي أصدقاء أبيه ، وتتصاعد رواح التبغ ودخان السجائر ، ويدوى صوت ضحكات (عاصم بك) المتظرفة ..
عندها كان يعرف أن (علاء) و (ناهد) قادمان .. ويناديه الصوتان الرفيعان من وراء خصائص النافذة ، فيهرع إلى أمه طالباً السماح له بالخروج : - « سألعب مع (علاء) و (ناهد) فى المقابر .. »
تقول الأم وهي مشغولة فى إعداد القهوة للضيف :

- « هذا لن يكون دون أن تسأل أباك .. »
فيتركها ويدخل - في كياسة - إلى قاعة الضيوف ..
ويلتصق في حباء أبيه الجالس يكمل حديثه مع
المهندس (محمود) .. ولا شعورياً يطوق الأب
خصره في لطف وهو يواصل الكلام ..
يلفت المهندس (محمود) نظر الأب :
- « ماذا يريد هذا الرجل الصغير منك ؟ »
فيهمس (إى) بطلب الإذن في مسمع أبيه ..
- « الوشوسة عيب .. كرر ما قلت بصوت عال .. »
- « أريد اللعب مع (علاء) و (ناهد) في المقابر .. »
فينفجر (عاصم بك) ضاحكاً :
- « هل تسمعون ؟ لقد ورث الطفل مزاج أبيه
السوداوي ! ابن حلال مصف ! هي هي هي ! »
فيحملق فيه الأب منذراً ، ثم يشير للطفل آذناً له
بالخروج :

- « لكن - أرجوك - لا تتأخر أو تذهب بعيداً .. »
ويهرع الصبي مغادراً الدار .. ليجد الطفليين اللذين
من سنّه ينتظران جوار الباب الخارجي ..
وينطلق الجميع - دون كلمة تحية واحدة - إلى
المقابر .. وبين الشواهد المظلمة يبدأ المرح .. هل

يوجد مكان أفضل للعب المساكة ؟ هل يوجد مكان
أفضل لقفز الحواجز ؟

كان (علاء) مهذبا .. وكانت (ناهد) ملائكة رقيقة
يخاف كل شيء .. لكنها لم تخش المقابر فقط ..
لم يحاول (ئى) أن يسألهما عن عنوانهما .. عن
مدرستهما .. عن أبيهما .. لكنه كان يحبهما دون
تحفظ .. وكان من طبقة أثرياء الفلاحين التي تمثل
طبقته ، لهذا لم يجد صعوبة في التعامل معهما ..
يعرفان كل شيء عن المقابر .. ويعرفان أسماء
سكانها واحداً واحداً .. لكنهما أتذراه مراراً بالابتعاد
عن الناحية الجنوبية - جوار شجرة التوت العملاقة -
لأن العجوز (عباس) لا يتحمل ضوضاء الأطفال ..
ذات مرة كاد الرجل يفتاك بهم ..

فهو عجوز خبيث المنظر ، له عين اتمحى سوادها
فراحت تلتمع كلؤلؤة في الظلام ، وقامته مهنية ،
وأطرافه التي أكلها الروماتزم صارت أقرب إلى المخالب ..
راح يركض وراءهم وهو يسبّ ويلعن .. ويقدفهم
بالحصى .. حتى أفلتوا منه وكمروا وراء شاهد قبر
عملاق ، يلهثون ويرتجفون ..
من يومها لم يدنوا من شجرة التوت فقط ..

كان هناك خطر آخر ينبع نهوضه هو الكلاب
السوداء العملاقة - المسحورة دوماً - التي ابتليت بها
القرية ، وحين تلقى أحدها كنت ترى عينين تلمعان
في الظلام منذرتين بالويل .. وتسمع هديراً متوعداً ..
ثم .. تدرك فجأة أن ثيابك ممزقة وساقيك تنزفان ..
 وأن إحدى وعشرين حقتة في جدار البطن تنتظرك في
مستشفى المركز ..

لكن - الغريب - لم تهاجمه الكلاب فقط طالما كان
مع (ناهد) و(علاء) .. وللهذا السبب كانت يوصلاته
إلى باب الدار بعد ساعتين من اللهو البريء .. ثم
يطمئنان على دخوله ويعودان أدرجهما .. إلى بينهما
الذى يجهل كل شيء عنه ..

وحيث يعود للدار يجد الضيوف قد أوشكوا على
الانصراف .. وتدس (زينب) هاتم قطعة من
الحلوى فى يده ، وتركت على رأسه .. عندها يدخل
إلى الفراش لينضو ثيابه .. يرتدى منامته .. وينام ..

★ ★ ★

أما المشاكل الحقيقية فهى فى المدرسة ..
إن الأطفال هم ملوك التعذيب فى العالم .. وقد كان
زملاوه فى الصف يمقتونه حقاً .. وكانتوا يجيدون
التعبير عن هذا ..

إنه مهندم أنيق الثياب .. وكتبه منسقة .. وحقيقة
يده من الجلد ..، في حين كانوا جميعاً يرتدون
مريولات قدرة متسلحة فوق سراويل مناماتهم .. وكان
كل منهم يحمل كيساً من القماش يدس فيه كتبه ،
وكتبهم - عندما تخرجها من الكيس - هي أقرب إلى
(الكرنب) منها إلى الكتب ؛ بأوراقها المجعدة
المكرمشة المختلفة ..

إذناه نظيفتان وأنف ، خال من المخاط ..
لهذا كان هو العدو الطبيعي لأنرابه .. وكم من
معارك دموية خاضها من أجل الانتقام لكرامته ..
ولهذا نجد أنه - في نهاية اليوم - يصير واحداً منهم
في بعثرة الثياب واتساخها ...

لم يكن هذا هو السبب الوحيد ...
ثمة سبب آخر لا يعرفه حقاً .. لكنه مهين للغاية .
ولكم من مرة حاول أحد أصدقائه إغاظته قائلاً :
- « يا ساكن بيت العفاريت ! »

أو يقول واحد آخر مخرجاً لسانه ، مستعملاً إحدى
يديه كقبضة (الهاون) والأخرى ك (الهاون) نفسه :

- « يا صديق الموتى ! »
ولم يكن (؟) يفهم .. ولم يكن ينتظر حتى يفهم ..

بل تنطق قبضته كالقذيفة إلى أى مكان فى مساحة سطح صديقه .. عينه .. أنفه .. رقبته .. بطنه .. ويلتحم الجسدان فوق التراب وسط التهليل والتصفير .. وغالباً لا تحسم المعركة إلا بعضاً تنهال عشوائياً على جسديهما ؛ ويمسك بها أستاذ مرهف الحس التربوى .
لكن (ى) ارتاح كثيراً للأستاذ (ع)
كان دائم التشجيع له .. دائم الاقتصاص له من معذبيه ..

وحتى فى سن الصغير لم يكن عسيراً على (ى)
أن يفهم أن (هـ) هي سبب هذا الاهتمام الزائد ...
لم لا ؟ إنه يحب الأستاذ (ع) .. فهو لطيف
المعشر شديد الحياة .. ولن تخسر الأسرة كثيراً لو
أنه صار فرداً منها ...
دعا الله في صلاته - التي تعلمها من أبيه - أن
يتحقق هذا الحلم .. وصارحنى مراراً بذلك ، فكنت
أزجره في شيء من خشونة .. لكنى سرت في سرى
لأنه يرى ما نراه

★ ★ ★

في ذات يوم نادته أمى حيث كانت في المطبخ تعد
القهوة .. دوماً هي تعد القهوة - للضيوف ..

انتحت به ركناً جوار الموقد .. وركعت على ركبتيها ليتمكن من سمعها وهي تهمس .. وسألته :

- « هل أنت ذاًهباً إلى المقابر اليوم؟ »

- « طبعاً .. حين يجيء (علاء) و (نا ...) »

- « حسن .. أريد منك معرفة .. »

وتلتفت حولها بحذر .. ثم عادت تهمس له :

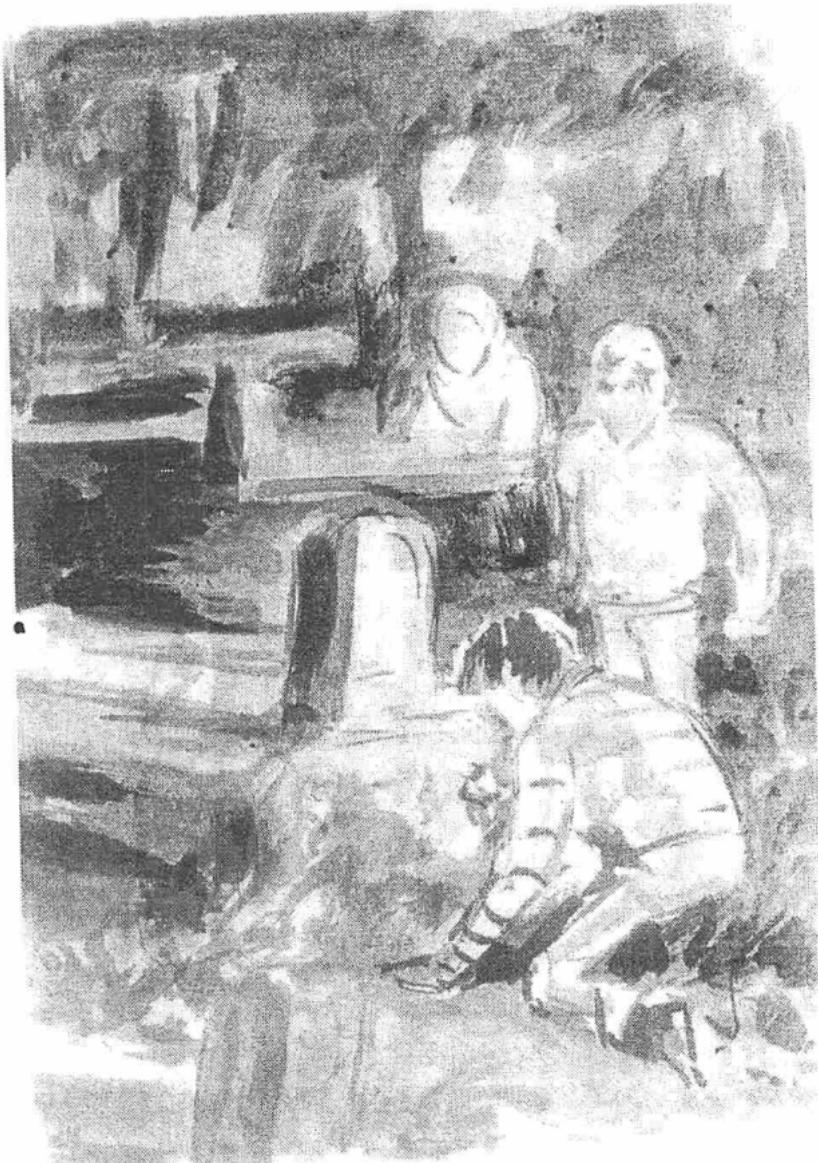
- « يوجد قبر بلا مزروعات أمامه .. أريد منك أن تنبش التربة التي حوله بحثاً عن كيس من المشمع .. كيس ملفوف حول أشياء ما .. هاته لى ولكن لا تفتحه .. هل سمعت؟ لا تفتحه .. احمله لى دون أسللة ودون أن يشعر بك أحد »

- « حسن .. »

قالها شاعراً بأهميته ..

وفي الحال جاء صديقاً .. فذهب معهما إلى المقابر كعادته ..

وكان القبر المقصود هناك .. لم يكن الأمر عسيراً .. وبعد تنقيب طويل على ضوء عود من الثقب وجد ضالته ، فدسها في جيبه وقلبه يخفق كالطلب .. وعاد إلى الدار فناول (الكنز) لأمه .. فلثمته شاكراً .. وملأت كفيه بحلوى النعناع من العلبة التي



وبعد تنقيب طويل على ضوء عود من الثقب وجد ضالته ..

تضعها فى (نملية) المطبخ .. العلبة العزيزة التى
عليها صورة غزاله تتأمل الأفق ، وتحمل اسم
الخواجة إيهاب

رأها - والحلوى فى فمه - تتأمل اللفافة .. ثم
تغمق فى لوعة :

- « الكفرة أولاد الكفرة ! إذن كان الشيخ (بسيونى)
صادقا .. وكنت على حق ! هذا (عمل) .. »
بعد هذا بأسبوع تقدم الأستاذ (ع) طالبا يدى !

★ ★ ★

لا أريد هنا أن أبدو حاسمة يا د. (رفعت) ..
قلت لك ما حدث ، وأنا أعرف أن لقوتين المصادفة
دروأ لا بأس به .. ثم إننى خير من يعرف الشيخ
(بسيونى) .. وأعرف أنه بالتأكيد هو من دسَّ هذا
(العمل) لى .. لكن يجده فيما بعد .. ويأخذ أجرًا
لا بأس به مع الحلوان ..

لكن .. تصور لحظة لو لم يكن (بسيونى) هو من
دسَّ هذا (العمل) لى .. إن هذا يعني أن هناك من
يكرهنى بجنون .. ويعنى أن هناك سحرًا شيطانياً
فعالاً يفوق ما نتصوره ..

★ ★ ★

(ع) يعرض إمكانياته وظروف أسرته في دقة ،
وباتزان يثير الإعجاب .. لقد كان شاباً رصيناً حقاً
أبى ينصلت له واضعاً ساقاً على ساق .. كان
مجاملاً حازماً متحفظاً يشتري ولا يبيع كما ينبغي لأبى
أن يكون ...

(ئ) يدخل الحجرة ويخرج منها متوتراً - كائناً
هو العريس - وقد ارتسم الفخر على ملامحه .. فهو
- ككل الأطفال - يحسب المعلم كائناً ديناصورياً أسطورياً
مكانه المدرسة ، لا يغادرها ولا يزور ولا يُزار ..
ولا يأكل ولا يشرب ولا ينام .. وهو يشعر بأن له
دوراً في جعل هذا الكائن الأسطوري يتازل ويدخل
دارهم

تساؤله أمى في همس مسموع :

- « هيه ؟ ماذَا يقولان ؟ »

- « يتحدثان .. »

يقولها وهو يصرخ خده لها في غرور .. ثم يتركها
عائداً إلى غرفة الضيوف وقد رسم سمات الخطورة
على وجهه ..

ونسمع صوت (ع) يكمل كلامه :

- « .. وهكذا ترى يا سيدى أننا أسرة طيبة .. أبى

فعل كل شيء كى يجعلنا شرفاء محترمين .. لكنه لم يترك لنا مليماً بعد وفاته .. كنا نعيش معه (من اليد إلى الفم) .. وبعد رحيله كان على أن التحق بمعهد متوسط لأنفق على إخواتي .. وأن أضحي بحلم الجامعة الذى كان سيجعلنى مهندساً كما تمنيت .. « لم يكن أبي راغباً فى معرفة الوضع المادى للفتى .. فثروته تسمح له بالاتفاق على أزواج بناته وابنائهم وأحفادهم .. إن كل الآباء يزعمون أنهم (يشترون رجالاً) دون أن يعنوا ما يقولون حقاً .. لكن أبي كان هو مشتري الرجال الوحيد والأخير فى هذا العالم ... كان يهمه معدن الفتى ..

ثم - وهذا الأهم - كان يبغى معرفة مدى تأقلم الفتى مع نمط حياتنا - الحياة التى يحاول جاهداً أن يغدو فرداً فيها

هل سيقبل حين يعرف أكثر ؟

هل سيظل على حماسه العنيد حين يتكلم الآخرون ؟
 حين يعرف طرفاً من أسطورتنا ؟



٦ - مضاوفنا ..

حينما رحل الفتى ظل أبي جالساً في مقعده الأثير
بعض الوقت .. ثم أمر الخادمة أن تعدل له (النارجيلة) ..
وأن تدعوه سيدتها إلى القدوم إليه ...

مسحت أمي يديها في المنشفة ، وخرجت - هامسة
بالدعاء - من المطبخ ، لتجلس إلى جوار أبي جلستها
الخائفة على طرف المقعد التي هي إلى الوقوف أقرب .
دقائق مرت ولا شئ سوى قرقرة الماء في
(النارجيلة) ، ورائحة التبغ الزكية تفعم القاعة ..

لقد ظل أبي متمسكاً بـ (النارجيلة) كآخر معالم
الفخامة وأعتقد أنه كان يأخذ منها ما هو أكثر بالتأكيد
من الدخان التركية التي كان يعيش فيها قبل الثورة ..
كان يأخذ الوضع الاجتماعي إذا فهمت هذا التعبير ...

قال لها بعد صمت طال :

- « عرفت ما دار بيننا بالتأكيد .. »

- « سمعته - طال عمرك - من (؟) .. »

- « ورأيك ؟ »

- « شاب ابن حلال .. ومؤدب .. ولا أرى ما يمنع
من ... »

- « المشكلة هي أنه لا يعرف .. !
قالها في عصبية جعلته يشرق بالدخان فيسعل ..
ثم أردف :

- « كح كح ! إن هذا الفتى أحمق .. ليس من
البلدة .. ولم يسأل عنا .. ولم يخبر أحداً بقراره
هذا .. »

- « إن النصيب حين يجيء »
- « بل هو غش وتدايس .. لو كان هذا الفتى
راغباً في الزواج من (هـ) فعليه أن يعرف الخلفيات
كلها .. بعدها نتفاهم .. لا أريد أن يقول إتنى خدعته
فيما بعد .. »

فى جزع هتفت الأم :

- « لكن هذا يعني ألا يعود .. »
- « هذا أشرف من الغش .. عاتس شريفة هي
خير من مطلقة أو زوجة معتوه .. »
صمتت المرأة على مضض ..
كانت تخدع نفسها منذ البداية .. وعلقت كل تعasse
ابنتها على شماعة السحر .. لكنها تعرف من البداية

أن السحر برع من هذا .. وأن ابنتها لن تتزوج
بسحر أو بدونه ...

★ ★ ★

فى المساء الأكثر توغلاً ؛ جلست فى حجرتى أمام
المرأة أمشط شعري وأتأمل وجهى .. وجه الحورية
الذى أهيم به حباً ...

جاءت (س) اختى وجلست جوارى على حافة
الفراش ، وهى تقضم قطعة من أجاصة (كمثري) ؛
وظلت تتأملنى برهة .. ثم قالت :
- « لم يأت الضيف اليوم .. »

- « لقد نهاهم أبي عن زيارته الليلة .. فهو يعرف
بقدوم (ع) .. »
في شرود قالت :

- « لو أنه رأهم فلن يلاحظ شيئاً غريباً .. »
- « لكن الأمور تتضح بعد حين .. هل نسيت
ما حدث لـ (نرمين) في تلك الليلة في مسكن
الطلابات ؟ ما إن دخلت (هيام) البايسة من الباب
حتى راحت (نرمين) تصرخ وتولول .. ووقفت على
الفراش مرددة في هستيريا : (لا تلمسينى) !

عندها لم تجد (هيام) بدأ من الفرار .. فالاختفاء من
حياتنا تماماً .. «

برغمى ابتسمت ابتسامة عصبية .. وسألتها :

- « وماذا حدث له (نرمين) ؟ »

- « عولجت لفترة من الانهيار العصبى .. الجميل
فى هذا أن أحداً لم يصدق حكايتها ، خاصة أتنى
أنكرت كل شيء .. ثم إنها تركت المسكن نهائياً ..
فضلت السفر اليومى من وإلى بلدتها .. »

- « كان حظاً سعيداً .. »

- « لكنه لن يتوافر دوماً .. إن (ع) سيعرف ..
وعندئذ ... »

رفعت خصلات الشعر من فوق جبينى .. وغمضت
في حيرة :

- « لعمري لا أفهم .. لماذا يمقت الناس الموتى ؟ ! »

السؤال الخالد الذى يتردد فى ذهنى منذ الصبا ..
لماذا يمقت الناس الموتى ؟ !

يبدو لي سؤالاً له لا نهاية الكون وغموضه ..
لماذا يمقت الناس الموتى ؟ !

★ ★ ★

- « لأنهم حمقى .. هذا هو كل شيء .. »

قالتها أختى (ن) وهى تتقى فى الفراش .. كان
أختى (ئى) مازال ساهراً يحملق فى السقف حين
هزها لتصحو ، وسألتها عن السبب الذى يجعل الصبية
يترشون به فى المدرسة ...
قال لها فى حيرة :

- « يقولون إتنا (بيت العفاريت) ، وما إلى ذلك .. »
- « هم أحرار فيما يقولون ما دمنا لسنا كذلك ..
وعلى كل حال أنا لا أرى فى العفاريت إهانة ما ..
والآن .. نَمْ .. نَمْ ! »

★ ★ ★

جاء المساء التالى ..
وكانت هناك حركة غير طبيعية جهة المقابر ..
المشاعل والكلوبات مرفوعة فوق الأعنق .. وجموع
الفلاحين ترحف حول صندوق خشبي مغطى ببساط
أخضر .. والغبار يتتصاعد فى الهواء .. فترسم عليه
الأضواء ظلال القوم الذين يمشون الهوينى ضاربين
الأرض بنعالهم ضرباً ..

إن للمسيرات التى تحمل المشاعل تأثيراً درامياً
رهيباً .. ربما لم يستطع أحد فهمه والتعبير عنه مثلاً
استطاع المخرج (حسين كمال) فى المشهد الختامي
الضخم لفيلم (شيء من الخوف) ..

وتدرِّيжиًّا بدا أن القرية كلها تمشي في هذه الجنازة ،
ربما باستثناء أبي الذي كان يتعالى على المناسبات
الاجتماعية كلها ...

لكن (هناء) خادمتنا البلياء عادت لنا بالخبر
اليقين ، وكانت في دار أمها بالجهة الأخرى من البلد ،
جاءت تقول لنا إن الميت هو (عبد الصمد قريطم) ..
فلاح من أبناء القرية توفي في صراع بالمسدسات مع
عصابة لصوص حاولوا سرقة الجمعية الزراعية ..
واللصوص يعدون بإلبابس رجال القرية طرحاً في
المرة القادمة ..

مع (هناء) يكون تفسير الأحداث سهلاً .. الخبر
صحيح حتى عبارة (فلاح من أبناء القرية توفي) ..
أما ما يلى هذا فلا صحة له .. وهو وليد خيالها
المريض الذي لا يكفي عن الفبركة والتأليف ..
وبحين انتهت مراسم الدفن على ضوء (التلوبات)
Sad الهدوء المكان .. وإن لم يأت ضيوفنا في تلك
الأمسية ، وبالطبع لم يخرج (ئى) للعب مع (علاء)
و (ناهد) ...

★ ★ ★

في الليلة التالية جاء الضيوف ..

أولاً وصل المهندس (محمود) وامرأته ، التر
هرعت - كعادتها - إلى المطبخ لتبدأ الثرثرة مع
النسوة هناك ...

ثم جاء د. (نجيب) صموتاً كعادته .. وعلى الفور
تصاعدت رائحة تبغ الغليون السكرية قليلاً ، والتي
تعلن عن وجوده قبل أن يوجد ..

بعدها وصل (عاصم بك) براحته العطرية
(الدسمة) التي تجثم على روحك كأنك التهمت طبقاً
ضخماً من الزبد وحدك

كان هناك رجل نحيل مهذب يرتدى عوينات سميكه ،
ولا يكف عن الثرثرة في السياسة .. وجه جديد هو ..
لكن (س) عرفت من مكانها في المطبخ أن اسمه
(حامد) .. وهو محام كما يبدو ...

بعد قليل حضر رجل ..

كان فلاحاً يرتدى جلباباً ممزقاً وحافى القدمين ..
وقد بدا عليه الارتباك .. بالتأكيد لم ييد متناغماً مع
هذا الوسط ..

سأله أبي في رفق :
- « من أنت يا أخي ؟ »

كان صوت الرجل خفيضاً مدغوم المقاطع وهو
يجيب بلهجة ريفية :

- « أنا (عبد الصمد قريطم) ..

عاد أبي يسأله :

- « منذ متى؟ »

- « أمس .. عصراً ..

- « حادث؟ »

- « نعم .. عند الساقية ..

- « إذن تعال وخذ مكاناً .. لابد أنك تشعر ببرد
شديد .. هل تشرب شيئاً؟ »

- « أكون لك شاكراً يا بك ..

رفع أبي عقيرته آمراً بالشاي .. هنا تدخل (عاصم
بك) في عصبية وهو يزيح مسم (النارجيلة) جانباً :

- « هذا غير لائق .. من المفهوم أننا لا نرحب
بالفالحين ها هنا .. وهذا الرجل فلاخ .. يعني تملا
البراخيث ثيابه ولا يفهم سوى في الماشية .. وأننا
أرفض أن ينضم إلى مجلسنا ! »

كان الارتباك يغمر (عبد الصمد) فلم يجد كلمات
يقولها .. وقططقت د. (نجيب) بلسانه لا تدرى
أموئيداً أم معارضًا .. أما أبي فقال في فتور :

- « (عاصم بك) .. أنا أرحب بالجميع هنا .. ولنن كان الفلاحون يجدون أن جلستنا هذه لا تريحهم ولا تنسابهم فهذا شأنهم .. لكنى أقبل الجميع ولا أتعالى على أحد لأنى فلاح ابن فلاح .. »
ثم باشمنزار أردف :

- « أما زلت متعالياً ؟ عرفت الفارق بين حياة الزيف وحياة الحقيقة وما زلت متعالياً ؟ هل توجد موعدة بعد الموت ؟ »

قال (عاصم بك) فى كبراء :

- « منذ أربعين عاماً كنت أجلس مع دوق (ويizer) نتمازح .. والآن أنا مرغم على الجلوس مع (عبد الصمد قريطم) ! »

- « لست مرغماً على شيء .. »
كانت (أم شفيق) قد جلبت الشاي للفالح .. فترفع على البساط السميك يجرعه في عرفان ..

قرر المهندس (محمود) أن يبدد جو التوتر الذي ساد المكان ، فأخرج وريقة من حبيبه .. وقال في مرح :

- « دعوني أتل عليكم قصيتي الأخيرة .. كتبتها في مناسبة الذكرى الخامسة لوفاة السيد رئيس مجلس الإداره :

ولى الذى قد كان نبرا سا

من بعده ساد الأسى الناسا(★) »

ثم توقف متلمظا .. وقال باستمتاع :

- « السينات كثيرة فى الشطر الثانى ، مما يعطى
الأسلوب جرساً موسيقياً محبباً .. إنه نوع من
الجناس الناقص .. »

وعاد يواصل (معنفته) المقيمة هذه

- « ولـى الذى ملك الجسارة والحـجا
ولـى الذى ملـأ الفؤاد حـماسـاً »
هـنا استدار أـبـى إـلـى الـجـالـسـين .. وـقـالـ دونـ أنـ
يـسـتأـذـنـ الرـجـلـ :

- « ثـمـةـ عـرـيـسـ جاءـ يـطـلـبـ يـدـ (هـ) .. »

- « مـرـحـىـ !ـ »

- « أـلـفـ مـبـرـوكـ !ـ »

- « إـنـهـ لـخـبـرـ يـسـتأـهـلـ قـصـيـدةـ طـوـيـلةـ .. »

قال أـبـى وـهـ يـدـاعـبـ شـارـبـهـ الفـخـ شـارـداـ :

- « المـشـكـلـةـ هـىـ أـنـهـ لـاـ يـعـلـمـ شـيـئـاـ .. »

قال (عاصم بك) :

(★) نعتذر على مستوى القصيدة . فهى من نظم المؤلف ذاته !

- « ليس لديك ما تخفيه .. القرية كلها تعلم ..
لابد أنه عرف كل شيء »

- « أؤكد لك أنه لا يعلم ... »

قال د. (نجيب) في تؤدة وهو ينظف غليونه :

- « إذن لابد أن تصارحه .. بل يجب أن يلقانا ويسمع إلينا ونستمع إليه .. هذا من حقه .. »

قال المهندس (محمود) متضايقاً قليلاً من بتر قصيده :

- « هذا طبيعي .. مادمت تنوى أن يقيم في دارك بعد الزواج .. أظن أن هذا ما تنتويه .. »

قال أبي في شرود :

- « نعم .. فهو لا يملك مسكناً ولن يوفر واحداً خلال أعوام .. »

- « إذن عليك بمصارحته دون تردد .. »

وساد الصمت ..

لكن الصخب بدأ في عقل أبي ..

غداً يأتي الفتى مع شقيقته وأمه للتتعرف : ولووضع النقاط على الحروف للمرة الأولى .. فكيف يمكن تدبير هذه المصارحة ؟ !



وأصل القط المواء ، فأحضرت له بعض اللبن
الدافئ في إناء صغير ووضعته جواره ...
لم أكن واثقة حتى هذه اللحظة من حقيقته .. هل
هو قط حق أم هو من ذات عينة ضيوفنا ؟ إن التأكيد
من هذا مستحيل بالنسبة للحيوانات العجماء التي
لا تستطيع التعبير عن نفسها ..
أحياناً كانت حيلة الألم تجدى ..
كنت أغرس دبوساً في جسد الحيوان ، فإذا صرخ
عرفت أنه حي يرزق .. وإلا كان معنى هذا
إن التجربة مرضية دون شك .. فقد انغرس
الدبوس بكمله في عنق القط لكنه ظل يلعق اللبن غير
مبالي

دخلت (س) الحجرة فوجدتني عاكفة على إطعام
الكائن الصغير فركعت على ركبتيها تمسح على عنقه ..
وسألتني :

- « هل هو حقيقي ؟ »
- « تعنين : هل هو حي ؟ بالطبع لا .. »
- ولثمت عنق القط في حنان .. وأردفت :
- « إنه ليس القط .. بل هو شبحه ! »

.....





لم أكن واثقة حتى هذه اللحظة من حقيقته .. هل هو قط
حي أم هو من ذات عينة ضيوفنا ؟ ..

٧ - ضيوفنا ..

في تمام السابعة مساء دق جرس الباب ..
فتحته (أم شفيق) ليدخل منه (ع) وامرأة شابة
بدينـة هي شقيقـته الكـبرـى (م) .. ثم عجوز ضئـلة
الجـسـد ترتدـى ثـيـابـاً لا بـأـسـ بـأـنـاقـتهاـ بالـتـأـكـيدـ هيـ أـمـهـ ..
دخلـواـ إـلـىـ قـاعـةـ الضـيـوـفـ ،ـ فـجـلـسـواـ ..ـ وـعـرـفـناـ أـنـ
معـهـمـ سـيـارـةـ أـجـرـةـ تـنـتـظـرـ بـسـانـقـهاـ خـارـجـ الدـارـ ..ـ فـهـوـ
لمـ يـكـنـ لـيـجـدـ موـاصـلـاتـ إـلـىـ المـرـكـزـ حـينـ تـنـتـهـىـ هـذـهـ
الـجـلـسـةـ ..

جاءـ أـبـىـ فـصـافـحـهـمـ ..ـ وـسـرـهـ ماـ بـدـاـ عـلـىـ الـأـخـتـ
وـالـأـمـ مـلـامـحـ الـأـصـلـ الـطـيـبـ وـالـمـوـدـةـ الـبـالـغـةـ ..
أـنـاسـ طـيـبـونـ لـاـ يـمـلـكـونـ شـرـوـىـ نـقـيرـ ..ـ هـكـذـاـ خـطـرـ لـهـ
لـكـنـ هـذـاـ لـمـ يـمـنـعـهـ مـنـ تـكـرـارـ :
ـ خـطـوةـ عـزـيـزةـ يـاـ حـاجـةـ !ـ

وـكـانـتـ المـرـأـةـ تـمـلـكـ عـدـدـاـ هـائـلاـ مـنـ الرـدـودـ التـىـ لـمـ
نـسـمـعـ بـهـا ..ـ عـلـىـ غـرـارـ (أـعـزـ اللـهـ مـقـدـارـكـ) ،ـ
(مـؤـاخـذـتـكـ مـعـكـ) ،ـ (أـطـالـ اللـهـ عـمـرـكـ) تـرـدـ بـهـاـ عـلـىـ
كـلـ عـبـارـةـ مـجـالـمـةـ بـبـرـاءـةـ مـنـقـطـةـ النـظـيرـ ...

أما الشقيقة فراحت تقلب عينيها في أرجاء القاعة ،
و (ع) ظل يرمي رقعة معينة من البساط في تركيز
حتى كاد أن يثقبها .. وقد احمر وجهه كالطماطم ..
بعد قليل دق جرس الباب ...

وظهر وجه (عاصم بك) .. ثم المهندس
(محمود) ثم زوجته .. ثم د. (نجيب) .. ثم (عبد
الصمد) .. ثم ذلك المحامي السحيل (حامد) وقد
اتجه كل منهم ليصافح الجالسين ، في حين يقوم أبي
بالتعريف الموجز البليغ ..
ترى هل لاحظ (ع) والمرأتان أن أيدي القادمين
باردة كالثلج ؟

ربما .. لكن المؤكد هنا أنهم لم يفهموا علاقة كل
هؤلاء بالموضوع ، موضوع شخصى كهذا .. وهم
مجموعة غير متجانسة لا يوحى أفرادها بأنهم أقارب
(هـ) ...

قال أبي وهو يعود للجلوس :

- « هم أخوة أعزاء .. »

قالت الأم :

- « أخوة السعد والهناء .. »

مع هذه المرأة تشعر أنك تلعب لعبة تنفس مع لاعب

ماهر .. يجيد صد كل كراتك ، كل عبارة تقال لها
تملك هى ردًا جاهزًا عليها ..
ثم إن أمى دخلت لتصافح المرأتين وتلائمهما ..
وبإشاره جانبية من أبي انسحبت النسوة إلى الداخل ..
على حين ظل الرجال جالسين يتبادلون النظرات
قال أبي فى رزانة :

- « إن الأستاذ (ع) شاب مهذب ينتظره مستقبل
لا بأس به .. وقد جاء لطلب يد ابنتى (ه) .. »
لكن (ع) لم يكن ينظر نحو أبي ..
كانت عيناه مثبتتين على (عاصم بك) .. (عاصم
بك) الذى مد أصابعه فى الفحم المشتعل فى
(النارجيلة) .. ورفع - فى هدوء - قطعة فحم
ملتهبة .. وراح ينفح فيها حتى تأججت نارها .. ثم
أعادها بنفس الهدوء إلى مكانها ... !
أبى يواصل الكلام :

- « عليكم .. إن (ه) هى ابنتى وأنتم أعمامها
جميعا .. لهذا لم أرد لهذا الموقف أن يمر دون
أن »

عينا (ع) تتجهان لتتحفظا د. (نجيب) الذى
أمسك بالسكين الذى نقطع به الفاكهة .. وراح - دون

هوادة - يغرسه في فخذه مراراً وتكراراً .. كأنما
يسلى نفسه في أثناء ملـ الحديث !

احمر وجه (ع) وازداد توتراً .. جلس على طرف
المقعد يقلب عينيه في القوم .. وعلى لسانه ألف
سؤال ..

وابى مازال يتكلم :

- « .. تشاركوا فيه بالرأي السديد .. الذي »
هنا تصلبت عينا (ع) على المهندس (محمود) ..
فرأه يمارس عملا لا يمكن اعتباره لائقا ..
ولا يصدر عن شخص مهذب حتى .. لكنه يمكن أن
يصدر عن ميت دون لوم كثير ...

كان (محمود) عاكفا على لصق اللحم المتتساقط
من وجهه في مكانه .. وقد بدا عليه الضيق
لا ضراره لهذا العمل غير اللائق !

كان هذا كافيا .. ووتب (ع) من مقعده ليتراجع
بعض خطوات إلى الوراء .. ثم هتف في رعب وعيناه
تشبان بمحجريهما بصعوبة :

- « ه .. هذا .. أ .. أنتم لستم بشرا .. »
لم يبدأ أبي من جلسته .. وبنفس الرزانة والتؤدة
قال :

- « أتصحّك أن تهداً قليلاً يا بنى .. هذه هي
الحقيقة .. إن هؤلا القوم ليسوا بشرأ .. أحياء ! »
- إ .. إذن ه .. هذا يعني .. «

- « نعم يعني .. «

- « .. إنكم .. بسم الله الرحمن الرحيم ! »
- « لم تقل إلا الصدق ! »

تراجع الفتى للباب أكثر .. وأوشك على أن يوْلى
الأدبار .. لكن إصبع أبي الحازم أوقفه في موضعه :
- « لحظة .. لو خرجت من هذا الباب فلن تدخل
منه ثانية .. ثم إن تصرفك يعكس ثانية مفزعه ..
هأنتذا تفرّ من بيت الأشباح دون أن تتسائل عمّا
يحدث الآن لأمك وأختك ! »

توقف الفتى .. ورفع يديه في توتر صانحاً :
- « هذا صحيح .. أم .. أم .. ماذا ف .. فعلتم
بها يا أندال ؟ »

طقطق د. (نجيب) بلسانه معتبرضاً .. ولوح
(عاصم بك) بالمنشأة في ضيق .. أما المهندس
(محمود) فقال في فتور :

- « تحشم يا فتى .. إن فرصتك في نيل رضاتنا
تتضاعل بسرعة هائلة .. وأعتقد أن هذا اللسان البذىء
لا يغرس بالحوار .. »

قال أبي مهداً النفوس :

- « صبراً يا إخوان .. إن هذا الفتى مصدوم .. وكل شيء مباح لمن أفقده الرعب صوابه .. »
ثم تناول مبسم (النارجيلة) ودسه في فمه ..
وقال بعد أن سحب بضعة أنفاس :

- « أنا لست منهم يا (ع) .. أنا شخص حيٌّ
مثلك .. لكنني أستضيفهم في داري .. ولهذا قصة
طويلة سأحكيها لك لو عدت إلى مقعدك .. أريد منك
أن تكون رجلاً جديراً برجولته .. »

بخطىء متناقلة عاد (ع) إلى المقعد .. وجلس
جلسة هي إلى الوقوف أقرب .. وتساءل في توتر :

- « أمي .. اختي .. هل هما ؟ »
رفع أبي كفه مطمئناً :

- « بخير طبعاً .. هما مع زوجتي وبناتي وكلهن
حيات طبيعيات .. نحن لا نطمئن إلى أن ترى النساء
مارأيته أنت .. فهن يفقدن الوعي ويولولن ويصبن
بالجنون وكل مالا نتمنى حدوثه .. »

دفن (ع) رأسه في كفيه .. واهتز قليلاً :

- « إذن كان ما قالوه عنكم صحيحاً ! »

- « من قال ؟ »

- « زملائي أهل القرية .. و (فراش) المدرسة ..
كلهم قالوا هذا لكنى لم أصدق حرفًا .. أنا أؤمن بالعلم
فحسب .. »

- « ربما كان هناك علم يصف هذه الظواهر ..
لكنه علم وليد لم يبلغ أشدّه بعد .. ليس العلم الوحيد
هو (ثابت بلاتك) وتكافؤ الصوديوم وتشريح
الصرصور .. هناك علم يتحدث عما وراء الطبيعة
لكنه لم يُقتنَ بعد .. وحتمًا لم يُكتب .. ».
ثم راح أبي يحكى قصته .. القصة التي خلقت
أسطورتنا .

قال أبي وهو ينالو (المبسم) لـ (عاصم بك) :
- « في شبابي كنت أعبث وأصدقائي كثيراً في هذه
الأمور .. كنا مدعومي الخبرة والمسؤولية ، لهذا رحنا
نلهو حول الحدود الخطيرة للحياة والموت .. اعتدنا
تحضير الأرواح ولم نتعلم كيفية صرفها .. النتيجة
هي أتنا صرنا محاصرين .. وجئنا اثنان من أصحابي
واتحرر ثالث .. أما أنا فقد عقدت معهم صفقة ..
سيكون علىَ وعلى من يأتي من ذريتي أن يقبل
استضافة أشباح الموتى .. خاصة هؤلاء الذين ماتوا
حديثاً ويشعرون بالغرابة والحيرة في عالمهم الجديد ...

معى يشعرون بالدفء الإنسانى ويشعرون لبعض
الوقت بأنهم ما زالوا أحياء يرزقون ..
ووضع ساقاً على ساق وضم عباءته على كتفيه
واردف :

- « من يومهم والموتى - أو أشباحهم - جزء من
عالمى .. بيته مفتوح لهم عند مجدهم ليلاً .. يمضون
معى أياماً .. شهوراً .. ثم يرحلون ويأتى آخرون
غيرهم .. كل أبنائى تربوا وسط هؤلاء الزائرين
اللبيسين .. لم يتعلم واحد من أبنائى أن يخاف منهم أو
يسىء لهم بكلمة تجرح شعورهم (إن الأشباح شديدة
الحساسية حقاً) .. وكل أبنائى يعلمون أن الأشباح
ستزور بيوتهم حين يكبرون ؛ لأن هذا هو قدرهم .. »
وابتلع ريقه كأنما عادت إليه ذكرى أليمة :

- « لا أكتمك سرًا أن هذا هو سبب طلاقى من
زوجتى الأولى .. لم تتحمل المرأة هؤلاء الزوار كل
ليلة ، وأوشكت على الجنون .. ثم إتنى آليت أن
أعيش طيلة عمرى جوار المقابر لأن هذا أقرب مكان
إلى أصدقائى .. ولم ترض المرأة بهذا واتفصلنا .. إن
بناتى يعرفن قصة مختلفة عن طلاقنا لكن هذا هو

السبب الوحيد .. والآن أنا متزوج من فلاحة طيبة ..
فلاحة من طمى هذه الأرض التي لا تعرف فارقاً بين
حيٍ ومت .. إن الريفيين - كأجدادهم الفراعنة -
لا يرون في الموت سوى رحيل إلى أرض أخرى ..
سفر .. ويتحدثون عن موتاهم كأنهم أحياه يرون
ويسمعون كل شيء .. لهذا لم ترفض هذه المرأة
الطيبة حياتي .. بعد فترة من الذعر صارت جزءاً من
هذه الحياة .. وأنجبت لى أطفالاً علمتهم أن هذا هو
الصواب ولا صواب غيره .. «

ثم مال برأسه نحو (ع) وتساءل :

- « ما هو رأيك في كل هذا؟ »

لا جواب من (ع) ..

- « لم أرد خداعك .. كان من الممكن أن أطلب من
ضيوفى عدم المجيء إلى هنا .. أو كنت أجعلهم
يتاون ولكن لا يقدمون هذا العرض الشائق .. لكنى
أردت أن أطلعك على البيت الذى طلبت الدخول فيه ..
وأن أريك نمط الحياة الذى ينتظرك .. فهل مازلت
راغباً في (هـ) بعد ذلك؟ »

صمت (ع) .. لم يجرؤ على رفع رأسه ليرمي
من حوله .. بعدما تأكد من كونهم أشباحاً ..

كان نونه كلون الجثث .. والواقع أن من يدخل
الحجرة كان سيغاله هو الشبح والأحياء هم من حوله .
هنيهة مرت .. فبرهة .. ثم همس بصوت مبحوح :
- « أرجو أن تنادى لى أمى وأختى ... »
صفق أبي بكفيه يأمر الخادم أن تدعوا السيدتين ،
لأن الأستاذ (ع) يريد الانصراف ..

وجاءت المرأتان والجبور يملاً أعطافهما .. فقد
كان التعارف مع نساء الأسرة و (زينب) هاتم ناجحاً
تماماً ..

فلما رأتا وجه الفتى الشاحب المتهالك آثرتا الصمت ..
وقررتا أن تعرفا ما حدث - وهو غالباً غير سار - في
طريق العودة ..

تمت المصالحات سريعاً .. واتجهوا إلى الباب ،
وهما تعداد بتكرار الزيارة مراراً .. وأن البيت
سيكون واحداً إن شاء الله ..

كان (ع) منهاراً تماماً .. كدمية (ماريونيت)
انقطعت خيوطها .. وقد سحبته المرأتان من الباب
سحبًا ورأسه يتربّح كأنما انقطعت العضلات التي
ترفعه فوق العنق ..

وحين اغلق الباب ساد الصمت ..

بعدها قال د. (نجيب) فى وقاره المعتاد :

- «لن يعود ..»

قال أبي بنفس الوفار :

- «لم يساورنى شك فى هذا .. لكنه رجل شريف
على كل حال ..»

قال المهندس (محمود) فى فلق :

- «ماذا لو ملأ الدنيا صخبًا .. وراح يثرثر بما
رأى؟»

- «لن يتكلم .. وإذا تكلم فما الذى سيضيفه إلى
كل الأقاويل التى تملأ القرية؟! كل الناس تعرف أن
الأشباح تزور بيته .. والشاة لا يضريرها سلخها بعد
ذبحها ..»

قال (عبد الصمد) حيث تربع على البساط يعبث
في قدميه :

- «لقد آذيناك حقاً يا بك ..»

قال أبي في طلاقة :

- «لا تقل هذا .. أنا نفسي لم أعد أطيق الآخرين ..
كل هذا الغرور والسفه .. أتتم فقط عرفتم الحقيقة
ومدى ضالة الإنسان .. لهذا أجد أن لديكم نضجاً
هائلاً يناسبني ..»

قال (عاصم بـ) في نزوجة :
 - « مازلت أكرر عرضي .. »
 - « لا تعد لهذا السخف .. أزوج ابنتي البكر من
 شبح ؟ وشبح ماجن متصاب مثلك ؟ مستحيل .. »
 قال المهندس (محمود) وهو يخرج قصاصة ورق
 من جيبه :
 - « يمكنني أن أسمعكم قصيدة لا بأس بها عن
 زواج الشيوخ من شبات .. »
 - « هل هي (البرغاب - يا وقعة سودا - جوزوه
 أحلى يمامه ؟ »
 - « بل هي قصيدة عمودية بالفصحي .. أقول فيها :
 زفوا الربيع إلى الشتاء فماتا
 والدود من زهر المروج افتاتا (*)
 الخ
 ★ ★ ★

ترى ماذا فعل (ع) ؟
 وماذا قال لأسرته بعد ما عرف أسطورتنا ؟

(★) نكر الأسف !

٨ - مصيونا ..

سائق عربة الأجرة (عباس) بشاربه الكث وسوالفه الطويلة ، بدا غير مستريح لهذا البيت .. لهذا دخل سيارته وأغلق زجاجها عليه .. وأدار المذيع ليصفى لمحطة (أم كلثوم) .. وكما قال لـ (ع) فيما بعد يصف لحظات انتظاره بالخارج :

- « كلاب سوداء كبيرة كانت تأتي من كل صوب .. وتقف في مواجهة البيت تنبج .. لأنما هناك ما يثيرها .. »
ثم اتسعت عيناه وأردف :

- « ثم جاء طفلان - ولد وبنت - مرأة بين الكلاب دون وجل .. بل إن الكلاب تراجعت حينما رأتهما .. و ... »

ورأى نظرة عدم تصديق في عيني الأم .. فقال في حماس :

- « أقسم بالله هذا ما حدث .. أنت تعرف أننى أقلعت عن الحشيش والبوجة وكل صنف يغضب الله .. ثم إن الطفلين وقفوا جوار إحدى النوافذ ، وراحت يناديان من يدعى (ئى) .. »

وأنمسك عجلة القيادة بكلتا يديه .. وأردف :
- « لم يظروا ما يدل على أنهم لاحظوا وجودى ..
لا أدرى كيف .. »

لكن (ع) كان يصدق هذا ...
يصدق ما هو أكثر وأدح منه ...

★ ★ ★

سألته الأم حيث جلست في المقعد الخلفي وراءه :
- « ماذا حدث ؟ هل تشاجرتم ؟ »
قال لها وهو يرمي الظلام بالخارج ، وأشار بالأشجار تتتسابق على الجانبين :
- « دعك من هذه السيرة يا أماه .. لن أعود إلى
هذه الدار ما حيت .. »

تدخل السائق مشجعاً وهو يشعل نفافة تبغ :
- « خير ما صنعت يا أستاذ (ع) .. سيجارة ؟
لا ... إن هذا البيت أثار القشعريرة في جسدي .. إن قلب
المؤمن دليله ، وأنا مؤمن ولله الحمد .. صحيح أنسى
كنت أتعاطى الحشيش لكنى الآن لا أفعل .. أنا مؤمن ..
وهذا البيت ليس مريحاً .. بالتأكيد ليس مريحاً .. »

لم تعلق الأم .. وواصلت السؤال :
- « هل رأيت شيئاً ضايك ؟ »

غمغم وهو يسند جبهته إلى زجاج النافذة البارد :

- « قلت لك أن تنسى هذا الموضوع .. »

- « لا يوجد ما يستحيل إصلاحه .. »

- « إلا هذا يا أماد .. إلا هذا .. »

لاحت بيوت المركز من بعيد .. فراح يبعث في
جيبيه باحثاً عن النقود التي سينقذ بها السائق ..
خرجت من جيبيه زهرة حمراء لم تذبل بعد ..
ونسيها هناك ..

كانت هناك في دار (هـ) مزهريّة ملأى بزهور
حمراء يانعة .. بالطبع .. ففى بيتهم تعود الزهور
الذابلة إلى الحياة .. أشباح بشر وأشباح كلاب وأشباح
زهور .. كل شيء جائز .. والزمن ذاته يتجمد ...

★ ★ ★

زهرة حمراء تنفظ أنفاسها على أسفلت الطريق الزراعي ..
هل رأها أحدكم ؟

★ ★ ★

لماذا يا (ع) ؟ لماذا ؟
كنت قد بدأت أهيم بك يا أحمق

★ ★ ★

خبر سار أعلنـه (عاصم بك) في الليلة التالية ..
إنه قد صار مستعداً للرحيل الآن .. ولن يعود
لل مجرء في الليالي المقلبة .. خبر سار لأنـه يعني أنـ



أشباح بشر وأشباح كلاب وأشباح زهور .. كل شيء جائز ..
والزمن ذاته يتجمد !

الرجل قد نضج وتقبل فكرة الموت .. وسار لأن
(عاصم بك) كان ضيفاً مزعجاً يحمل عيوب الأحياء
كلها .

لكن الفراق أليم دوماً ..

ودموع حارة سالت من أبي وهو يعانق الرجل
مودعاً .. كذا عانقه الآخرون في حرارة ..

قال (عاصم بك) وهو يصلح من وضع طربوشة :
- « لقد عرفت أسعد أيام حي ... أ ... أسعد أيامى
في هذا البيت .. وعرفت معنى الصدقة الحقة .. إنكم
تخالفون عن كل الأذال الذين تخلوا عنى في حياتى ..
وتركونى أموت بالسكتة القلبية دون أن يستدعوا
الطبيب .. كنت أمثل لهم عجوزاً لا نفع من ورائه .. »

قال أبي محاولاً تغيير مجرى الحديث :

« وأين ستقيم ؟ في الخرائب ؟ »

- « بل في القبر ذاته .. فهو مريح جميل .. لعله
أفخم قبور هذه القرية المنكودة .. وإن كنت أمقت
رؤيه العظام التي تحول جسدي إليها .. »

« كلنا ذلك الرجل يا عزيزى .. »

وتعانقاً من جديد ..

تساءل د. (نجيب) وهو ينظف غليونه :

« ماذا عن ذلك الشاب (ع) الذي كان هنا بالأمس ؟ »

قال أبي وهو يريح يده على كتف (عاصم بك) :
 - « يقول (ى) إنه تغيب عن المدرسة .. أعتقد أنه سيتغيب لفترة وبعدها يطلب نقله إلى قرية أخرى .. »
 - « هذا ليس مستغرباً .. »
 وفرغ الأصدقاء من الوداع ..
 واتجهوا نحو باب الدار ليعود كل منهم إلى مكانه .

★ ★ ★

نكن (ع) عاد إلى المدرسة ..
 في ذلك اليوم كنت هناك واقفةً كعهدي بانتظار
 (ى) .. حين رأيت المدرس الشاب قادماً نحوه يجر
 رجله في تردد .. وكان ينظر إلى الأرض عازماً على
 أن يصطدم بي (بالصدفة) ..
 واصطدم بي فعلاً .. فرفع وجهه باسماً نحوه
 وهتف :

- « (ه) ؟ يا لها من مصادفة ! »
 تأملته في صمت ولم أقل شيئاً ..
 ما الذي يتغيه بالضبط ؟ هو لن يتزوجني كما هو
 واضح .. وبالتالي لم يعد هناك معنى للمجاملات ..
 إن عدم زواجه من امرأة ما ، فهو أكبر إهانة يمكن
 وصفها .. وليس بعد ذلك بعد ...
 قال لي معاذباً :

- « لم تخبريني .. »
- « بم ؟ »
- « بما قاله أبوك ؟ »
- « لأنك لم تسألني .. ولست مطالبة بتعليق لافتاً
تقول إننى أستضيف الأشباح .. »
- مررت برها صمت .. بعدها غمغم (ع) فى حيرة :
- « لم أعد أدرى .. إننى أميل إليك كثيراً لكن كل
هذا كثير .. كثير جداً .. إنه يفوق الطبيعة ويفوق
خبرات البشر .. وبعد كل هذا تجديننى جباناً لأننى
لا أقبله ؟ مستحيل أن يقبله أحد ! »
- قلت فى كبريات وأنا أرمق الجهة الأخرى :
- « لم أطالب بشئ ولم أطلب الآخرين بشئ ..
أنت حر فى قبول (تزانيا) على خارطة العالم أو
عدم قبولها .. فهذا لن يغير شيئاً .. (تزانيا)
موجودة بالفعل .. وستبقى كذلك .. »
- « أردت أن أفسر لك فحسب .. »
- « هذا مجهد لم يطلبه أحد .. »
- « لقد أحببتك حقاً .. »
- « الجميع يحبونى ولا حيلة لى فى هذا .. »
- هنا كان (ى) قد وصل .. وحياناً أستاذه فى فتور ..
فقبضت على كفه فى حزم وابتعدنا ...

★ ★ ★

ولكنى - حين عدت إلى دارى - لم أعد أملك ذات
الكثرياء المتوقد .. وخطر لى أنه قد يكون على شرء
من صواب ...

إن عالمى لغريب .. شاذ .. وليس ذنبه إلا يتمكن
من قبوله .. من قال إن الموتى الذين يزورون دارك
ليلاً موضوع يحتمل المناقشة؟

إننا - فى تماسكنا الأسى - قد ظلمنا العالم
الخارجي كثيراً .. وفرضنا عليه أن يعيش بمقاييسنا
وإلا كان عالماً رديئاً ..
تمسح القط فى ساقى ..

فأزحته عنى بشيء من اشمئزاز ..
إن كل هذا يناقض الطبيعة .. لهذا هو منفر وغريب .
وفى المساء بدأت الدموع تبلل وسادتى للمرة الأولى .
وتذكرت قصة ماتت منذ أعوام ...

★ ★ ★

مثلما جاءت (هيا) لترثى مع (س) .. ومثلما
يجيء (علاء) و (ناهد) ليلعبا مع (ئى) ؛ كانت
(ريمى) تأتى لدارنا ليلاً كى تدرس معى ..
كانت (ريمى) فى سنى - الثالثة عشرة وفتها -
حزينة شاحبة لا تبتسم أبداً .. وكان هذا يفزعنى ..
فالأطفال والمراءهقون الذين لا يضحكون مرعبون دائمًا .

لكنى - تأدباً - لم أكن أظهر رعباً .. و كنت أجلس
 جوارها على الفراش ، و نضع كتب الرياضيات
 والجغرافيا والتاريخ كومة واحدة جوارنا .. الأدهى
 هو أن أبي كان يغلق الباب علينا كى لا يعطينا شيء
 عن التحصيل ! وحتى لا أستطيع الفرار ...
 و كنت أتأمل عينيها الذابلتين .. و شحوبها ..
 وأتسائل عن سر اهتمامها بالتحصيل إلى هذا الحد !
 لم تكن مقبلة على امتحان بالتأكيد .. لكنها تمارس
 كل عاداتها وهي حية مثلنا ...
 وكانت الفكرة تملؤني ذعراً على ذعر
 الآن أسترجع الذعر ذاته ، وأوافق أن حياتنا لم تكن
 طبيعية قط .. ولن تكون ...
 آه ! لو أكون أخرى ... لو انفصل عن هذه
 الأسرة وأبدأ في مكان جديد سقيق خال من الموتى
 وسيرتهم
 لكنى لا أعرف لنفسى حياة أخرى .. ولا أنساً
 آخرين ..

★ ★ ★

اغفر لي لحظة الوهن هذه ..
 هاتذا أسترد قواى ، وأعود إلى حبى والتحامى
 بأسرتى ..

إن من يأبى أن يكون منا لا يستحق أن يكون منا .

★ ★ ★

ففى المساء رحت أتأمل وجهى فى المرأة ...
يا للجمال الباهر ويا للسحر ! لكن كل هذا بلا
جدوى .. كزهرة بارعة الحسن تنمو فوق قمة جبل ،
فلا يرها أحد ولا ينتفع بها أحد ، ثم تذبل وتموت ..
كل هذه الحياة عبث طويل مرهق ، ينتهى بأن
أموت وأتردد فى صورة شبح على دار (س) لافزع
زوجها لو صار لها زوج ...
لن أعرف مذاق الأمومة .. ولن أدخل طفلارضياعاً
أعرف أنه جاء من أحشائى أنا ..
لن أراه وهو يكبر ويخطو خطوطه الأولى على
الأرض ..
ولن أبحث له - فى صرامة - عن زوجة تناسبني
أنا لا هو ..
وانفجرت فى البكاء ...

★ ★ ★

لا أريد الاعتراف بهذا ...
أنا خجول من التصريح .. لكنى مرضت جداً
وهزلت فى الأيام التالية .. وكان جسدى يأبى أن
يشارك إرادتى التحدى ...

رحت أقىء مراراً .. وأعاف الطعام ..
وامتلأت حجرتى براحة البخور .. ورفقنى أمى
عدة مرات ، تثاءبت مللاً فى إحداها مما جعلها توقد
بأتنى محسودة ...

وسمح أبي لـ د. (نجيب) بأن يفحصنى ..
كان على أن أتحمل أنا ملله المثلوجة على بطني ..
وأن أقاوم حقيقة أن من يكشف على ليس حياً ...
لكن د. (نجيب) كان يجيد مهنته حقاً .. عرفت
هذا من أمى فيما بعد ...
قال لأبى فى قاعة الضيوف :

- « إن أعراضها ليست جثمانية .. إنها أعراض
نفسية تماماً .. أعراض اكتتاب تفاعلى حاد .. »

- « سبحان الله ! وتقىء وتهزل ؟ »

- « الاكتتاب هو سلطان النفس .. »

تسائل أبي وهو يسترخى فى مقعده :

- « والحل ؟ »

- « الاكتتاب التفاعلى لا يزول إلا بزوال السبب ..
إن (هـ) تعانى رتابة الحياة وانغلاقها .. فلا أصدقاء
لها .. والخطاب ينفرون من هذه الدار كما حدث مع
المدعو (ع) .. إن الحل يمكن فى إبعادها من هنا ..
أو - واسمح لى بهذا - تزويجها ! »

صاحب أبي فى حنق :

- « تزوجها ؟ هل تقول إن ابنتى ؟ !؟ »

رفع د. (نجيب) يده مقاطعاً :

- « إنها سنة الحياة ودورتها البيولوجية التي حتمها
الخالق .. لقد خلقها الله كى تتزوج وتعمر الأرض مع
زوجها .. ونليس لهذا علاقة بأساسها التربوى ..
وحيث نتحدى سنة الله هذه يكون المرض النفسي
أبسط ما نلقاء .. »

حك أبي ذفنه مفكراً :

- « كلام لا يأس به .. ولكن ماذا عسائى أن أفعل ؟

هل أدور على الديار أطلب عريساً ؟ »

- « إن الفتى الذى تقدم لها منذ أيام مناسب للغاية ..
وأحسبها متعلقة به إلى حد ما برغم مكابرتها .. لم
لا تحاول معه ثانية ؟ »

- « أحاول ؟ وكرامتى ؟ ماذا لو رفض ؟ »

- « إن الأمر يستحق المحاونة .. »

هنا نهض (عبد الصمد) من مجلسه على البساط ..

وقال فى حماس :

- « دعه لى يا سيدى .. أنا أعرف كيف أقنعه ! »

.....

★ ★ ★

٩ - أسطورتنا ..

حدث هذا حين كان (ع) عاندًا من المدرسة ...
كانت دروس الفترة المسائية قد انتهت : وقد بدأت
الشمس تنحدر إلى الأفق لتغفو بعد يوم مرهق من
العمل

يمشي (ع) جوار الترعة قاصدًا موقف السيارات ،
حيث تختشد تلك الأشياء المتهالكة من القرن
الماضى .. سيارات كانت فاخرة في الأربعينات ثم
أعطبها الزمن وفتتها .. لكنها ظلت تتحرك ..
بعربة من هذه وثلاثة قروش يعود إلى المركز
يومياً .. حيث يتناول وجبه الأساسية ، ويصلئ
ويغفو في الفراش المتهالك إلى الصباح ..
كان يوماً طويلاً أرهقه ..

وفي الظلام لم تكن الرؤية واضحة لعينيه المتعبيتين .
لكن هناك دوماً سيارة أخيرة تنتظر آخر الذاهبين
إلى المركز .. بعدها تنزل قريتنا عن العالم تماماً ..
الطريق صار محفوراً في ذهنه بعد كل المرات التي

قطعة فيها .. فهنا البقال (سليمان) يدخن الجوزة
على دكة جوار محله .. وهنا الكلب العجوز يغفو على
باب دار .. وهنا جذع النخلة المقطوع الذى وضعوه
كجسر على ضفتى الترعة ، والذى يلهم فوقه الصبية
لا يهابون السقوط فى الماء ، ويسميه أهل القرية
(القحف) كأنه معلم أثري من معالم قريتهم .. ثم
عدد من الجاموس عائد من الحقل تقدمه طفلة
صغرى ضامرة كالقملة حافية القدمين . سبحان الذى
سخر هذه الوحوش لطفلة يمكن أن تهشم لو داسها
حافر واحد

ثم المنحنى جوار هذا البيت الطينى ..
وتمر فى حارة ضيقة تملؤها الكلاب .. لكن حذار
من أن تدوس ذيل أحدها .. إنها على العموم مساملة
اعتادت وجوده
و
.....

★ ★ *

كان العملاق يقف فى الظلام ...
فى يده (نبوت) هائل الحجم يرفعه منذرًا ..
وتردد الصوت العميق الرهيب يقول :

- « اذهب إلى البك واسترضه ! »
وثب قلب الفتى إلى فمه .. وتساءل في حيرة :
- « م .. من أنت ؟ »

- « أنا واحد من أكرمهم البك .. لهذا أنا مدین
له .. عليك أن تعود وتطلب يد (ه) هاتم ! »
تراجع الفتى إلى الوراء .. وبهلع هتف :
- « إذن .. إذن أنت واحد من ! »

دنا العملاق من دائرة النور الشاحب ، فاستطاع
(ع) أن يرى ملامحه إلى حد ما ..
لقد كان جالساً على البساط في تلك الأمسية !
أطلق صيحة واستدار ليفر ..
عندئذ شعر بشيء يحمله من ظهره .. وقدماه
ترتفعان عن الأرض فراح يركل ويتملص ..

- « عَدْ لِلْبَدْ، واطلب يد ابنته .. وإلا »

صرخ (ع) مستغيثاً :
- « هذا لن يكون .. ! »
- لا تتمسك برأيك .. «

- « لا ! .. -



دنا العملاق من دائرة النور الشاحب ، فاستطاع (ع) أن
يرى ملامحه إلى حدّ ما ..

في اللحظة التالية أدرك أنه يرتفع في الهواء ..
وأنه يغوص في بئر عميقة مظلمة ...
كان (الترانش) الذي تحشد فيه مياه المجرى
- فالقرية ليس لها نظام صرف صحي - مفتوح بفعل
فاعل في هذا الزقاق الضيق .. وبالتالي غدا خطراً
مريراً على الغافلين ..
لكن (ع) لم يدرك - وكيف يدرك ؟ - إنه هو بانذات
يهوى في البئر المظلم كريه الراحلة

★ ★ ★

مر يومان والقلق يعم الجميع ...
كثيرون جاءوا يبحثون عن (ع) .. وتم سؤال
الجميع .. لكن أحداً لم يدر بالإجابة ..
كل الشواهد تقول إنه غادر المدرسة مساءً كعادته ..
لكن السائقين ينكرون جميراً رؤيته ليتلتها ..
لقد رأه البقال العجوز وبادله التحية .. معنى هذا
أنه فقد في مكان ما بين متجر البقالة و موقف العربات .
لكن البحث لم يسفر عن شيء .. يوجد (ترانش)
منسى في هذا الزقاق لكنه مغلق من سنين ..
وخطاؤه محكم يعجز رجلان قويان عن إزاحته .. إذن
هو غرق في الترعة ..

لُكْن الْبَحْثُ لَمْ يَسْفِرْ عَنْ وَجْدٍ جَثَّتِهِ الْمَتَشَمِّعَةُ الْمَنْفَخَةُ
الَّتِي تَمْنَى رَجَالَ الشَّرْطَةِ أَنْ يَجْدُوهَا لِتَنْتَهِيَ الْقَصَّةُ ...
ابْنَكَ مَفْقُودٌ يَا سَيِّدَتِي .. خَرَجَ وَلَمْ يَعُدْ .. وَلَا نَرَى
مَا يَمْنَعُ مِنْ أَنْ تَتَشَرَّى صُورَتِهِ فِي . الْجَرَانِدِ مَعَ نَدَاءِ
إِسْلَانِي ..
أَنْتَ هَرَبْتَ ؟ لَا نَظَنْ .. حَتَّى وَنَوْ فَشَلَ فِي الْحُبِّ كَمَا
تَقُولِينَ ..

إِنْ جَثَّ الْمَنْتَهِرِينَ لَا تَسْبَخُ .. وَلَابِدَ أَنْ تَجْدِيهَا فِي
مَصْرَفٍ .. أَوْ جَوَارِ شَجَرَةٍ .. أَوْ وَسْطَ الْمَزْرُوعَاتِ ..
كَلَا .. لَمْ يَنْتَهِرْ ابْنَكَ .. نَرْجُحُ هُنَا أَنَّهُ قَدْ هَرَبَ ..
فَرَّ إِلَى مَكَانٍ مَا لَا يَعْرِفُهُ فِيهِ أَحَدٌ .. وَبِالْطَّبْعِ سَيَعُودُ ..
كُلُّهُمْ يَعْوِدُونَ بَعْدَ حِينَ ..
فَقَطْ تَجْمَلُ بِالصَّبْرِ وَالسَّلْوانِ ..

★ ★ ★

فِي الْأَمْسِيَّةِ التَّالِيَّةِ فِي دَارَنَا :
جَاءَ ضَيْوَفُ أَبِي الْوَاحِدِ تَلَوَ الْآخِرِ ...
الْمُهَنْدِسُ (مُحَمَّد) .. وَزَوْجَهُ .. الْمُحَامِي ..
(عَبْدُ الصَّمْد) .. د. (نَجِيب) ..
ثُمَّ جَاءَ آخِرُ الضَّيْوَفِ ...

كان شاباً وادعأ يبدو الخجل على محياه ..
فما إن رأاه الجالسون حتى هبوا واقفين :
- « أنت ؟ ! »

احمرت أذنا الفتى .. وهمس بصوت مبحوح :
- « نعم .. جنت أنيضم لمجلسكم .. »
تأمله أبي في شك .. وغمغم :
- « إن العالم كله يفترش عنك دون جدوى .. هن
انت واثق من كونك ميتاً ؟ »

لم يرد (ع) .. مدّ أتمامه إلى النار في الفحم ..
والتقط جذوة وهشمها بثأمانله في حركة درامية ذات
معنى

قال أبي وهو يعود للجلوس :
- « إذن أنت ميت .. ولكن متى وكيف ؟ »
رفع (ع) أصبعاً متهمًا وجهه نحو (عبد الصمد) ..
وهتف :

- « قتلنى هذا الرجل .. رماتى في (ترانش)
مفتوح .. »

- « هذا هو السر ! لهذا لم يجدوا جثتك فقط !
ولهذا أنت هنا .. لقد وجد لك (عبد الصمد) قبرًا

دائماً في القرية .. ولو لا هذا لدفت في المركز بعيداً
عنا .. لماذا فعلت هذا يا (عبد الصمد) ؟ «
حك الفلاح المذكور رأسه من تحت طاقيته .. و قال
في شيء من حرج ..

- « أردت أن أرغمك على المجيء إلى هنا يا بك .. »
نظر أبي إلى (ع) وتساءل :
- « وهلنتذا قد جئت .. هل تحس حقداً على قاتلك ؟ »
قال (ع) في شرود :

- « لا أدرى .. من الصعب أن يحقد ميت على ميت ..
لكنني فقدت شبابي ومستقبلي وأسرتني بضربة واحدة
من شبح أحمق .. إن هذا يذهلني أكثر منه يحزنني .. »
ثبت أبي عينيه في عيني (عبد الصمد) :
- « هل لي أن أعرف لماذا فعلت ذلك ؟ »
- « لأنى .. لأنى أحبك يا بك ! »

- « لعمري هذا وفاء نادر .. لكنك تجاوزت الحد ..
تجاوزته وكان يجب أن تسألني أولاً .. »
وأطرق إلى الأرض يتأملها :
- « كان يجب أن تسألني أولاً .. »

★ ★ ★

ومن يومها صار (ع) ملكي ...
إنه يأتي لنا فى كل أمسية ، فيجلس جوار (محمود) ..
ويصفى لأشعاره الردينة .. ويتبادل النكات مع المحامى .
وأحياناً يسمح له أبى بمقادرة الغرفة ، لأقف معه
فى الردهة نتبادل كلمات خجلى كالتي كنا نتبادلها على
باب المدرسة ..

لقد نسى (عبد الصمد) تفصيلاً بسيطاً ...
من المستحبين الآن أن أتزوج من (ع) لأنه شبح
وأنا حيّة ..

وقد غدا الوضع أكثر تعقيداً مما كان ...
ل肯ه ها هنا .. جوارى إلى الأبد .. ومعه أبى ..
وكل الأعزاء الذين أنتمى إليهم ..

لقد صار (ع) واحداً من أسرتنا أخيراً ..
وهذا يكفينى ويثلج صدري ...

ويوماً ما سأموت .. عندها أكون معه للأبد ..
ونذهب لنمضي أمسيات دافئة عند أخي أو اختى ...
هذه هي أسطورتنا يا د. (رفعت) :

حكيتها لك بأمانة وصدقٍ ..
لا آمل أن أجد عندك حلّاً لهذا الوضع المستحبيل ..
لكنني أرجوك لا تبخّل علىَ به لو كان عندك
المخلصة (ه)

خاتمة

مرحبا .. أنا د. (رفعت) أعود إليكم لاستكمال التعليق على أحداث هذا الخطاب .. وهو - كالعادة - تعليق سخيف لا يضيف جديدا ..
لقد انتهت أسطورتهم ..
وبالطبع لا أملك حلّاً لمشكلة هذه الفتاة .. حتى لو ماتت فأناأشك في إمكانية زواج الأشباح ..
ثم إنها لا تزيد الفرار من هذه البينة .. إنها تمقتها لكنها فخورة بها إلى حد غير عادي ، وهذا واضح تماما ...
إن القصة مقبضة دون شك .. وكابوسية ..
ومشتومة .. لكنها كانت تستحق أن أحكيها ، ولا أدرى ما إذا كنت تشاركتي الرأي في هذا ..
أما عن مصدقتيها فأمر يحتمل النقاش ..
ربما أحاول يوماً ما العثور على هذه الفتاة أو الاتصال بها .. إن الجلوس مع أشباح في قاعة واحدة ، وتبادل الآراء .. لأمر جدير بالتجربة .. برغم كونه مريعا
ومن يدري ؟
لربما اشتريت لنفسي قبراً في هذه القرية ، حتى

إذا متَّ كانَ منَ السهلِ علىَ أنَّ الحقَّ بهذهِ الأسرةِ
الكبيرَةِ ، وحْتى لا أشعرُ بالوحدةِ في قبرِي
لقد انتهتَ أسطورَتِهم ..

انتهتَ بـشـكلِ مـنَ أـشكـالـ الحـبـ المـسـتـحـيلـ ، مـعـ
الـاعـتـذـارـ لـلـأـسـتـاذـ (رـعـوـفـ وـصـفـيـ) عـلـىـ اـسـتـعـمـالـ
عـنـوانـ إـحـدـىـ مـجـمـوعـاتـهـ الـقـصـصـيـةـ ...
إـنـ الـحـبـ بـبـينـ شـبـحـ وـإـنـسـانـ حـىـ لأـمـرـ عـسـيرـ إـلـىـ
حـدـ ما .. وـلـاـ أـتـوـقـعـ لـهـ نـجـاحـ كـبـيرـاـ

★ ★ ★

فـىـ القـصـةـ الـقـادـمـةـ نـدـخـلـ بـعـدـ آـخـرـ مـنـ أـبـعـادـ الـفـزـعـ
الـتـىـ لـاـ حـصـرـ لـهـ .. سـنـتـحـدـثـ عـنـ آـخـرـ الـلـيـلـ .. لـيـسـ
أـوـلـهـ وـلـاـ وـسـطـهـ بـلـ الـهـزـيـعـ الـأـخـيـرـ مـنـهـ ، حـيـنـ يـنـذـرـ
الـفـجـرـ بـقـرـبـ نـجـاتـكـ .. لـكـنـهـ لـاـ يـأـتـىـ أـبـدـاـ ...
ولـكـنـ هـذـهـ قـصـةـ أـخـرىـ .

د. رفعت إسماعيل

القاهرة

رقم الإيداع : ١٦٠٦

المطبعة العربية الحديثة

٨٠ و ٤٧ شارع المنظلة الصناعية بالعباسية

القاهرة - ٢٨٣٢٧٩٢ - ٢٨٣٥٥٤